رسالة في التوحيد

المنقول والمعقول

السفيـــر

محمد أميـن جبر



مكتبة جزيرة الورد

القاهــرة : ٤ ميــــدان حليــم خلــف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: رسالة في التوحيد .. المنقول والمعقول

إعـــــداد: السفير/ محمد أمين جبر

رقم الايداع:

الطبعة الأولى ٢٠١٣



مكتبة جزيرة الورد

القاهـــرة : ٤ ميـــدان حليـــم خلـــف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

tokoboko_5@yahoo.com

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهــر الشريف
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتأليف والترجمـة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السـيد / السفير / محمد أمين جابر

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ـ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : رسالة في التوحيد المنقول والمعقول
تأليفكم .... ١٤٠٦ هـ .....

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مـدير عـام
إدارة البحوث والتـأليف والترجمـة

تحريرا فى / / ١٤ هـ
الموافق ٤ / ١٢ / ٢٠١٢ م

١١ / ١٢ / ٢٠١٢

١٢ / ١٢ / ٢٠١٢ م

إهـــداء

إلـــى :

المؤمنين في هذا العصر الذين يعملون الصالحات
ويتواصون بالحق ... ويتواصون بالصبر

* * *



{وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}

[الزمر : ٦٧]

* * *

المقدمة

الحمد لله العلي عظمة وقدراً، القريب رحمة وفضلاً، الواسع إحاطة وعلماً، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، عبد الله ورسوله محمد ﷺ، وبعد... فهذا حديث للعقل والروح في مشاهد من التوحيد، والطاقة في الأسماء الحسنى جمع بين المنقول والمعقول أقدمه على قدري المتواضع من العلم والفهم والرؤية شرح الله له وبه صدري آملاً أن يزيد المؤمنين إيماناً مع إيمانهم، وأن يزيد الموحدين تبصرة بتوحيدهم، وأن يخرج الكافرين من ظلمات جهلهم، وينير للمشركين طريق هداهم وهديهم، حتى يستقيم الجميع على هدى الله كما أمرهم ربهم، وأن يزيحوا في عصر المادة الذي نعيشه ركام جهلهم وجاهليتهم الناتجين عن نقص معلوماتهم فيما يتعلق بالألوهية التي ينفرد بها رب العالمين وخالقهم، ومالك أمرهم، ومنزل شرائعهم، وهي بعد عبارة عن جهاد بالكلمة الحرة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

لقد جاء الإسلام لهداية الإنسان نحو تقدير الإله حق قدره وتوحيده وعبادته بالإيمان الكامل وبالعلم والمعرفة، وبالتحقق والشهود، حتى لا يشرك الناس بإلههم المعبود غيره، وحتى يُذكروا بقرآن قرآنه فيذكروه ويعبدوه، ويتجهوا مسلمين لذاته ولهديه، لا تفرق بهم السبل عن سبيله، ولا الأهواء عن طريقه، ولا المسالك عن منهجه، حتى يكون الدين واقعًا، والتوحيد جامعًا. إن هداية الإتباع لله وحده بإرادته وأمره{**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**} [القصص: ٥٦]، أما هداية البيان والتبليغ فهي للأنبياء والمرسلين كافة، وللعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، ولكل من هدى الله بالإيمان والتقوى وجعله ولياً مرشداً أو خبيراً بالرحمن{**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**} [الشورى: ٥٢]، وإني إذ لا أزعم لنفسي أبداً مهمة الإرشاد

والهداية، فإن محاولتي في هذا الحديث الإيماني إنما هي رؤية أردت بها أن أضيف جديداً إلى مفهوم التوحيد الخالص عند المؤمنين، تجريداً للحق وتفريداً له بالتنزيه والكمال والأحدية، أرجو الله أن يكون فيه نفعاً لإخوتي المسلمين، وإخوتي في كل دين نزل به الوحي من عند الله سبحانه وتعالى بالتوحيد الخالص.

إن معنى الطاقة في لغة القرآن العربي هو القدرة، والطوق هو القدرة، والقدرة هي الطاقة أو القوة على الشيء والتمكن منه[١]. والله القوي سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ويخلق ما يشاء ويختار. كما أن معنى الطاقة بلغة العلم المعاصر هو أيضاً القدرة، القدرة على إتيان فعل أو عمل. وقد استعملنا في هذه الرسالة في التوحيد مفهوم الطاقة بمعناها القرآني العربي الذي يتوافق معه المعنى العلمي المعاصر الذي اتفق عليه العلماء. وعلى ذلك فإن سر سريان الطاقة في الأرض والسموات والكون وكل مخلوقاته هو سر سريان القدرة الإلهية في الأرض والسموات والكون وكل مخلوقاته شهادة وشهوداً لحق الإله الله وحده لا شريك له وشهادة وشهود محمد رسول الله ﷺ. والقدرة الإلهية لا حدود لها ولا نهاية لأن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، ولا تقترن بمجهود أو مقدار وتعني إنجاز الإرادة الإلهية بالأمر الإلهي الذي يعبر عنه " كن فيكون "، بفعل شيء إن شاء أو عمله أو صنعه أو إيجاده أو خلقه وفق التقدير الأزلي والعلم المحيط الشامل منذ الأزل (أول بلا ابتداء) وإلى الأبد، (آخر بلا انتهاء).

وبهذا المفهوم والمعنى تحدثنا عن الطاقة الأسمائية، أي طاقة الأسماء الحسنى، قاصدين قدرة الله " الجامع للأسماء الحسنى

(١) كذا في المعجم الوسيط إصدار مجمع اللغة العربية - طبعة مكتبة الشروق الدولية رقم (٥) صفحة (٥٩١ و ٧٤٤).

والصفات العلا كلها " على الصنع والخلق والفعل، وما يتصل بهذه القدرة من قوة وحياة وإرادة وأمر وعلم وحكمة وسمع وبصر وكلام، وهي صفات وضعها الله أيضاً في الإنسان الخليفة في الأرض بقدر محدود ونسبي حين نفخ الله فيه من روحه، ليفهم كل إنسان شيئاً محدوداً بطبيعته وقدره من العلم، عن أسماء الله وصفاته يكفيه للإيمان بالله وتوحيده وحسن عبادته معتمداً على محيط العلوم الذي يسبح فيه العلماء - خاصة المؤمنين الراسخين في العلم منهم - في ترقيهم المعرفي المستمر في المعرفة بالله والكون والإنسان.

كما أشرنا في هذا الحديث إلى قانون بقاء الطاقة الذي يقضي باختصار. أن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث، إنما هي تتحول - أو تحول - من شكل إلى آخر، وخلال عملية التحول هذه تتبدد بعض الطاقة كحرارة، بحيث يبقى مجمل الطاقة - مع الحرارة المتبددة - مساوياً للطاقة المتحولة أو المحولة، أي أن المجموع الكلي للطاقة يبقى كما هو.

ويجب أن يكون معلوماً أن الطاقة في الكون يمكن أن تقترن بجسم " مادة أو كتلة "، ولكن الطاقة الأسمائية لا تقترن بجسم ولا بمادة ولا بكتلة وإنما بذات هي ذات الله الذي ليس كمثله شيء، كما أن بقاء الطاقة يعتبر وجها من وجوه تجلي الاسم " الباقي "، إذ إن بقاء الطاقة الكونية إنما يستمد من بقاء الطاقة الأسمائية لأن الاسم قديم قدم الذات الإلهية في تعلقه بها، كما أننا التزمنا في حديثنا في توحيد الألوهية بالحقائق التالية:

١- تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أن يماثل شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين أو المخلوقات.

٢- الإيمان بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ مما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح.

٣- العجز عن إدراك الذات الإلهية وهو ما يعتبر في الوقت نفسه قمة الإدراك الممكن.

٤- الاعتماد على قانون السببية " الأسباب والمسببات " الذي تؤثر به طاقة الأسماء والصفات على المخلوقات في الكون بالتدبير الإلهي من خلال الأمر المعبر عن الإرادة في " كن فيكون ".

٥- نفى كل ما يؤدي إلى التجسيم أو التشبيه أو التعطيل أو الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود أو التصور أو التشخيص أو المثلية أو التجسيم، عن الله سبحانه وتعالى الذي هو القدوس[١].

٦- تنزيه الله سبحانه وتعالى عن حدود الزمان والمكان وعن الاحتواء والحدوث ومشابهة المحدثات وكل أبعاد أخرى قد تكون.

وفي لغة العلم الإنساني فإن الخواص والخصائص المتصلة بالطاقة الطبيعية الكونية تخضع للقوانين الخاصة بالمحدثات، أما في لغة العلم الإلهي فإن الخواص والخصائص المتصلة بطاقة الأسماء الحسنى لا تخضع للقوانين الخاصة بالمحدثات لأن الله سبحانه وتعالى - وهو الاسم الجامع للأسماء والصفات كلها - ليس كمثله شيء في كل شيء، ولذلك أيضاً فإن تعدد صور الطاقة في الطبيعة تعدد حقيقي بينما هي في الأسماء الحسنى وحدة واحدة يجمعها الاسم الأعظم، اسم الجلالة (الله) سبحانه وتعالى.

فالشغل في المفهوم العلمي الإنساني هو المجهود الذي تبذله القوة في تحريك جسم مسافة معينة، فالمجهود يسمى شغلاً وقياسه يكون بحاصل ضرب القوة في المسافة، ولا يبذل شغل بدون طاقة.

والقوة هي كل ما أثر في جسم فأعطاه حركة ذات سرعة متزايدة بانتظام، ومثال ذلك الجسم الذي يسقط من يد الإنسان، والقوة

(١) راجع معنى " القدوس " في التمهيد من هذا الكتاب.

المؤثرة هنا هي الجاذبية الأرضية، والقوة تقاس بحاصل ضرب كتلة الجسم في السرعة.

والقدرة هي مقدار ما يبذله الإنسان أو الآلة من شغل " مجهود " في الثانية " أو الوحدة التي يقاس بها ".

والطاقة صفة في الأشياء تهيئها لإنجاز عمل وهي تنقسم إلى حركية وكامنة " الطاقة الميكانيكية " والاثنان ينتهيان بالحركة.

ومع كون هذه الصفات حقائق متصلة بالله وبالإنسان، إلا أن تعلقها بالله سبحانه وتعالى يختلف اختلافاً كلياً ويتباين تبايناً تاماً عن تعلقها بالإنسان أو الطبيعة، بالضبط كسائر الأسماء الحسنى والصفات العلا، كالعلم مثلاً الذي يعتبر كاملاً شاملاً محيطاً عند الله ونسبي ومحدود عند الإنسان، وعلى ذلك فإن العمل الذي يمثل مجهوداً في لغة العلم الإنساني لا يمثل مجهوداً في نسبته إلى الله سبحانه وتعالى وأسمائه الحسنى{**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**} [ق: ٣٨] ولغوب يعني تعب أو نصب أو إعياء.

وهكذا فإن **القوة** المؤثرة في الجسم بالحركة والسرعة في لغة العلم الإنساني، لا صلة لها بجسم أو حركة أو سرعة أو زمان أو مكان في نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى الذي لا تجري عليه الأحكام التي تجري على المخلوقات " الإنسان - الطبيعة " حيث قوته سبحانه وتعالى لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود ولا تقاس إليها أبعاد.

والقدرة التي تمثل مقدار العمل الذي يبذله الإنسان أو تبذله الآلة في الثانية الواحدة في لغة العلم الإنساني، ليست كذلك في نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى الذي تعتبر القدرة لديه لا حدود لها ولا نهاية.

والطاقة التي تمثل صفة في الأشياء تهيئها لإنجاز عمل في لغة العلم الإنساني لا تقاس أو تنسب إليها أي تهيئة أو إعداد أو تحول أو

تغير فيما يتعلق بنسبتها إلى الله سبحانه وتعالى لأن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد بالأمر المعبر عن الإرادة في " كن فيكون " بلا بعد زماني أو أي بعد آخر.

بهذه الفوارق نفهم معاني صفات القوة والقدرة والصنع والخلق والإيجاد، عند الله سبحانه وتعالى كما نفهم معاني سائر الأسماء الحسنى والصفات العلا في كمالها الإلهي ونقصها الإنساني لأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في كل شيء، وهو وحده الكمال المطلق بينما الإنسان هو النقص النسبي.

إن الطاقة هي المحرك الأول والآخر للأشياء، وهي الباطن لكل المظاهر أو الروح لكل الأبدان، واستخدام الطاقة ينطوي دوماً على قوي، وبدون الطاقة لا يمكن أن يحدث أي شيء في الكون.

والكون عبارة عن مادة وطاقة - جسم وروح - المادة الكونية هي الجسم والطاقة هي الروح.. والطاقة لا تُرى ولا تُوزن ولا تُذاق إنما هي تتقمص الأشياء.. وتتجلى أو تظهر فيها دون أن تدرك ماهيتها، والأشياء تدركها الأبصار بينما الطاقة لا تدركها الأبصار.. ومثال ذلك كرة صغيرة متدحرجة.. أنت تراها تتحرك وتقول إن بها حركة ولكن إذا سألت نفسك ما الحركة؟ فكأنما سألت ما الروح؟ علمها عند ربي، وهكذا بالنسبة للحرارة والضوء وسائر أنواع الطاقات، وبعبارة أخرى فإن الطاقة هي صفة في الأشياء تهيئها لإنجاز عمل أو فعل.

إن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، والقدرة تعني الطاقة، والطوق هو القدرة[١]، وقد نسب الله سبحانه وتعالى الطاقة إلى الإنسان وتعني القدرة المحدودة، كما في قوله تعالى{**رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا**

(١) الطاقة تعني القدرة والطوق يعني القدرة كما جاء في المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية.

مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ} [البقرة: ٢٨٦]، وكما في قوله تعالى**{قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}** [البقرة: ٢٤٩]، بما يشير إلى أنهما يعبران عن نفس المعنى مع الاختلاف البين الكلي والتام بين قدرة الله سبحانه وقدرة الإنسان بالضبط كاختلاف سائر الأسماء الحسنى والصفات العلا بين محدوديتها ونقصها في الإنسان وكمالها المطلق بلا حدود في نسبتها إلى الله تعالى، رغم كونها حقيقة في الاثنين.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه حدث:♂**إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة**[1]، ومن معاني الإحصاء " الطاقة " من الإطاقة، كقول النبي ﷺ :♂**استقيموا ولن تحصوا**[2] أي لن تطيقوا كل الاستقامة، ومعنى يطيقها هو أن يحسن المراعاة لها والمحافظة على حدودها في معاملة الرب سبحانه بها، فضلاً عن التخلق بها والتحقق بمعانيها.

سياحة مع القدرة الإلهية:

إننا مع فصول الحديث نسيح سياحة تكون فيها عقولنا وقلوبنا وأرواحنا مع الله - تبارك وتعالى - نسيح في ملك الله وملكوته مع الله، والكون، والإنسان.. إن كل شيء في هذا الوجود كان في الحقيقة لا شيء، حيث كان الله ولا شيء غيره، واحداً في فضاء تفريده لا شريك له في الوجود، واحد في مقام أحديته، وكان وجود الله واجباً لذاته[3]، أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء، وفي هذا المقام كان لا

---

(١) رواه البخاري وأخرجه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو عطفة وابن جرير وأبي حاتم وابن حيان والطبراني وأبو عبد الله بن منده في التوحيد وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي حديث ٢٢٣٨، ومسند الإمام أحمد حديث ٢٢٣٧، جامع الأحاديث للسيوطي حديث ٣٣٢٠، سنن ابن ماجه حديث ٢٧٧، موطأ الإمام مالك حديث ٦٦.

(٣) واجب الوجود لذاته هو الذي لا يحتاج ولا يفتقر إلى علة أو سبب ولا إلى غيره في

يعرف الذات الإلهية إلا الذات الإلهية، والمقام كما كان في حقيقته لا يزال كائناً، وسيظل كما هو على ما عليه كان، وكان الكون بكل كائناته ومعها الإنسان غيب في علم الله، أي مكتوباً في تقدير الله، ثم صدر الأمر الإلهي المعبر عن إرادته بـ " كن فيكون " وتوالى ظهور كل شيء بالتدبير الإلهي طوراً بعد طور في أزمنة يعدها الإنسان بملايين السنين مما يعد ويحصى.

وتطور هذا الكون بعد انفجاره الأول[١] حتى تكونت نجومه، ومجموعاته، ومجراته وسككه اللبنية، وغير ذلك مما لا نعرف من الأشياء الكائنة، وكان الكون يتهيأ لظهور الحياة على الأرض من المجموعة الشمسية التي يتبعها الكوكب الأرضي، وانفصلت الأرض في المجموعة الشمسية عن الشمس في أصح التقديرات حتى برد سطحها، وتهيأ ماؤها، واستقر ترابها، واكتمل هواؤها، واستكنت نارها، حتى ظهرت أولى الكائنات الحية ذات الخلية الواحدة البسيطة في ماء هذه الأرض.. وبدأت الحياة في هذه الصورة البدائية من الماء، وظل الماء هو أساس كل شيء حي.

ثم انتقلت تلك الكائنات الأولى البسيطة إلى الأرض، واختلط التراب بالماء، وكون طيناً بدأت منه في الأزمنة السحيقة ظهور الكائنات الأكثر تعقيداً من الزواحف البرمائية، ثم البرية، وغيرها.. وعبر ملايين السنين استمر التغيير في الأرض، وفي مائها المحيط، وفي سمائها المظلة حتى ظهر الإنسان الأول آدم عليه السلام وهو يجمع العناصر الأربعة المعروفة " الماء، والنور، والتراب، والنار ".. يضمهم هيكله المسوي.. وكان هذا الهيكل أكبر آية من آيات الله على الأرض حيث سواه الله، ونفخ فيه من روحه، وأشرقت بالنفخة

وجوده، وعكس واجب الوجود ممكن الوجود.

(١) حسب نظرية الدوي الكبير (Big Brarg) المرجحة بين العلماء.

الروحية فيه مظاهر الأسماء الجمالية والجلالية من حضرة الربوبية وهي تسعة وثمانون اسماً[١].. ومن خلال ميزته في النطق، والبيان والقرآن، شهدت فيه الملائكة نور الأسماء الربانية وسجدت له بالأمر الإلهي من أجل هذا النور فيه، ولكن هذا الكائن الإنساني المعجزة كان مثالاً لكمال الصنعة الإلهية، فبدأ خلق الإنسان من سلالة من طين إلى أن صار هذا الإنسان نطفة من مني يمنى في قرار مكين، تطورت في رحم الأم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، عندما اتحدت النطفة المنوية الذكرية بالبويضة الأنثوية وكانت هذه هي بداية الخلق من النفس الواحدة التي هي الخلية الحية للذكر والتي اتحدت مع البويضة الأنثوية، لنفهم معنى**{وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}** [النساء: ١] كان هذا الإنسان المتكبر المتحدي لخالقه - أحياناً - نطفة في البداية، ثم كان علقة، ثم كان مضغة، ثم اكتست المضغة بالعظام، ثم اكتست العظام باللحم واكتملت التسوية، ثم نفخ الله فيه من روحه فصار خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولم يكن للإنسان في بطن أمه دور في هذا كله، فقد كان مسيراً في تكوينه عبر قوانين من التطور والوراثة وفق ما قدره الله تقديراً ودبره تدبيرا، حيث أعطى الله للنطفة هداها لتتكون منها مع غيرها من الخلايا كل ما نعرف من خبايا، ومكونات الجسم الإنساني بما في ذلك المخ والجهاز العصبي المركزي، وحتى تلقى هذا الجسم عبر المخ قبساً من نور روح ربه فصار مؤهلاً بروحه ليعرج إلى الملأ الأعلى وعوالم الملائكة، والروح، لكنه كان في الوقت نفسه ينطوي على عدة أبعاد متصارعة بعضها عدو بعض نابعة كلها من العناصر التي تكون منها وبصفة خاصة الغريزة التي كان يقابلها العقل، والنار

(١) الأسماء العشرة الذاتية الكمالية ليس للعبد حظ في التخلق بها لأنها من خواص الحضرة العلية ومنها (الله) و(النور).

التي كان يقابلها النور، والطين، وكان يقابله الروح، والنفس، وكان يقابلها الدين.. وكان المسؤول الأول عن تطور الإنسان في الخلق هو خالقه - سبحانه وتعالى - ومرت على الإنسان أيام منها يوم{**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**} [الأعراف: ١٧٢] الذي شهد فيه كل بني آدم وذرياته بربوبية الله الذي لا شريك له، وهو يوم متكرر بتكرار الخلق الجديد، وظهور الذريات من الأصول.

وهبط الإنسان من الجنة[١] إلى الأرض ليبدأ حياة الكد فيها بعد أن عبر بعصيانه في الجنة عن ظلمه لنفسه، ولبني نوعه بالأكل من الشجرة متصرفاً في الإطار الذي خلقه الله فيه حراً مختاراً ذا إرادة فكان " العصيان " [٢] هو أول تصرف إرادي حر للإنسان تميز به عن الملائكة، وعن الكون الطبيعي ذاته.

وبدأ الإنسان يشق طريقه في سَعَةِ الأرض، وهو كائن حر مريد مختار ليحقق هدفاً أزلياً منشوداً من الله - سبحانه وتعالى - هو باختصار شديد عبادة الله الواحد الأحد الذي ليس له كفواً أحد وتوحيده سبحانه.

وبدأ احتكاك الإنسان بالبيئة من حوله في السماوات والأرض، وكان لديه شعور بدائي بالدين حيث وجد نفسه وحيداً في هذه الأرض الفسيحة في خضم من الكائنات غير المستأنسة، ولكنه كان ممتلئاً بالشعور الديني المؤمن بإله يعبده. وتوالى هدي الله يتنزل إلى الإنسان في الأرض عبر الأنبياء والمرسلين حتى بعث الله النبي الخاتم ﷺ، وتطور الفكر الديني إلى آفاق جديدة يقودها ويهديها العقل

(١) نحن نعتبر أن جنة آدم كانت في مكان ما في الأرض لأن آدم خلقه الله من طين الأرض ذاتها ولم يرد أنه رفع إلى جنة في السماوات{**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**} [طه: ٥٥]، راجع للمؤلف كتاب " الإنسان والخلافة في الأرض "، الناشر دار الشروق.

(٢) وليس المعصية.

فشهد الإنسان في هذا الكون الفسيح كما شهد في نفسه آيات التجلي الإلهي، فعبد الحق كما يحب الحق، وجاء النبي ﷺ بأنوار من الفرقان، وآيات من القرآن، والبيان، وارتقى التوحيد إلى أعلى قممه، وأسمى مراتبه، ورأى الإنسان مظاهر الأسماء الإلهية تحيط بكل شيء في هذا الكون من أوله إلى آخره، وفي ظاهره، وباطنه، وصارت كل تلك المظاهر في الكون عبارة عن مرائي تلوح فيها أسماء الله في محيط إحاطة هذه الأسماء بكل شيء، وسعة علم الله، وقرب الله بالرحمة والفضل، من كل شيء، ويتوجه الإنسان من مظاهر الجمال والجلال إلى أسماء الجمال والجلال ذاتها، وتكون الرهبة منه ليست من مظاهر الجلال وإنما من أسماء الجلال ذاتها والرغبة فيه ليست في مظاهر الجمال، وإنما في أسماء الجمال ذاتها. وهو مشهد يترقى فيه العبد من المظهر الطبيعي إلى الاسم الحقيقي**{يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً}** [النور: ٥٥].

وسيرى الإنسان المؤمن آيات الخالق العظيم في نفسه، وفي الكون حتى يتبين له الحق واضحاً جلياً واحداً لا شريك له، وذلك على مر وتعاقب العصور.

الله سبحانه وتعالى:

وكشف الله - تبارك وتعالى - عن أحدية هوية ذاته، وشهد معه الملائكة وأولو العلم من الناس، إن كل مخلوق مصيره الفناء، والموت، والله يحيي ويميت، وهو وحده الباقي الدائم، وهو قيوم السماوات والأرض، وهو الذي يمسك بقوته قبضة الكون بتوازنه الكهربي الذري حتى لا يزول.. يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، وله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً تسبح له السماوات السبع، والأرضين، ومن فيهن، وما من شيء إلا يسبح بحمده ولكننا لا نفقه تسبيحهم.

ليس له ند، ولا صاحبة ولا ولد، كل أسمائه متعلقة بذاته وهي لذلك قديمة لا تأخذه سنة ولا نوم، يدبر الأمر في السماوات والأرض لا شريك له في ملكه وملكوته، فهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. علمه محيط، وعلمنا محدود، ونحن لا نتوصل إلى شيء من علمه إلا بما شاء ومتى شاء وكيف شاء ولكن دون أن يتساوى علمنا مع علمه سبحانه كما هو يعلمه. يعلم ما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام، وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار. إن كانت صفاتنا مشابهة لبعض صفاته فإن صفاتنا على قدرنا، وليست كما هي متعلقة بالله سبحانه وتعالى، لأن الأسماء لها تعلقاً بالخلق المرحوم على قدر هذا الخلق، كما أن لها تعلقاً بالخالق الرحيم على قدره هو سبحانه، فعلم الله - مثلاً - ليس كعلمنا، ولا يمكن أن يصل إلى ماهية علم الله إلا من كان مثله، ولما كان الله - سبحانه وتعالى - ليس كمثله شيء، فإن أحداً لا يعلم مثل علمه والله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهو لا يحل في الأشياء، ولا تحل الأشياء فيه، وأنه مصدر كل القوى، والطاقات في هذا الكون مما نعرف، ومما لا نعرف، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا تحويه الأقطار، ولا يؤثر فيه الليل والنهار، ولا تحيط به العقول، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، وعليه رزقها، ويعلم مستقرها، ومستودعها، هو العلي عظمة وقدراً، القريب رحمة وفضلاً، الواسع إحاطة وعلماً، ليس كمثله شيء في كل شيء.

ولذلك فليس لأحد أن يتفكر في ذات الله، لأنه لن يقدره حق قدره، ولم يؤت في طبيعة خلقته ذاتها القدرة على ذلك لا بالعقل، ولا بالقلب، ولا بالفؤاد، ولا باللب، ولا بالروح، ولا بالنفس، ولا بأي شيء آخر، فالله - سبحانه وتعالى - منزه تنزيهاً كاملاً في فضاء

التفريد، عن الإطلاق والتقييد، وهو نور السماوات والأرض، لكننا لا نعرف ماهية هذا النور، إلا من خلال مثله المضروب في القرآن في المشكاة، والزجاجة، والمصباح في تعلقهم بالشجرة المباركة الزيتونة، ولذلك فهو يدبر الأمر في السماوات والأرض، كل يوم هو في شأن، وكل شيء خلقه فقدره تقديرا، كما أنه يصرف حركة النجوم، والكواكب في أفلاكها.. يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل.. يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويرزق من يشاء بغير حساب، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء.. والله معنا في وحدتنا، واجتماعنا، يرى، ويسمع، ويعلم ما نتفوه به من كلام، أو ما نحتفظ به في أنفسنا من أسرار فهو سبحانه يعلم السر، والخفاء، والأخفى وبعده المجهول في أعماق النفس الإنسانية، لأنه سبحانه الباطن الذي ليس دونه شيء، ما من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أقل من ذلك، ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، وهو رب الملائكة، والجن، والروح، وكلهم يطلبونه بالعبادة والذكر، كما نطلبه نحن بالعبادة والذكر، وهو لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، وهو رب العرش العظيم، ورب البيت المعمور، يعلم الكتاب المكنون، ثابتاً في اللوح المحفوظ، مطلع على الرق المنشور، مقدر الشؤون والأمور، كل ذلك في غير حدود من الزمان، والمكان، أو أي بعد آخر قد يكون، خلق السماوات والأرض، ولم يعي بخلقهن، وهو القادر على أن يخلق مثلهن، بل إنه لو شاء لبدل كل شيء بغيره حتى يكون كل شيء عابد له، مسبح لعلي مقامه، كما تسبح النباتات، وكما يسبح الجماد، وكما تسبح أمم غيرنا مخلوقة في البحار، وفي الأرض، وفي السماوات، كل شيء يسبح بحمده، وكل كائن مفتقر لصمديته[١]، وكل شيء موجود بإرادته، وما قد نراه

(١) الصمد هو المقصود في الحوائج.

بعيداً يراه هو قريباً، لأنه ليس في الزمان وإنما الزمان فيه - سبحانه له الأسماء الحسنى - وهو يجير ولا يجار عليه، غني عن كل الخلق، وعن كل شيء في كل شيء، سبحانه وتعالى عما يصفون علواً كبيرا.

هو الذي يصورنا في الأرحام كيف يشاء، ويرعانا برحمته، ونحن رضع صغار لا نملك لأنفسنا حولاً ولا قوة، ثم لا نزال نتطور عبر السنين، ومن يعمر منا ينكس في الخلق، ولا يعلم من بعد علم شيئاً، وهو الذي يسخر لنا كل ما في الأرض من أجل دورنا فيها، وهي مستقرنا المؤقت فما نمنيه هو يخلقه، وما نحرثه فهو يزرعه، وما نشر به فهو واجده، وما نستغله من طاقة فهو منبتها، أعطانا العقل، ووضح لنا الحساب، وألهم نفوسنا فجورها، وتقواها، وأمرنا بالطاعة وبالقراءة في القرآن الكريم كتاب الله، وفي الكون العظيم، وهو أيضاً كتاب الله، لا حول لنا ولا قوة إلا من حوله وقوته، ولا مشيئة لنا إلا بمشيئته، ولكنه سبحانه وتعالى أمرنا بالطاعة ونهانا عن المعصية في اختبار كبير، فريق منا في الجنة، وفريق في السعير، ورحمنا رحمة شاملة كلية بخاتم المرسلين، وما معه من نور وكتاب مبين، وأسرج أرواحنا من نور سراجه المنير، لنعرج في معارج القرب، وننعم في جنان الشهود، ونعقل آيات الوجود، وهو أقرب إلينا من أنفسنا، ولكن أبصارنا محجوبة، يغشانا غطاء الغفلة إلى أن تحين لحظة الموت والفراق، وهو عندئذ أقرب إلينا من حبل الوريد بلا تحيز ولا حلول، ولا اتحاد، عالم بخفايا السر، وبكل الجزئيات والكليات فينا، وفي الكون العظيم من حولنا، حتى أنه ما تسقط من ورقة إلا وهو يعلمها، وما يسبح كائن إلا وهو يسمعه، ولا يتصرف متصرف إلا وهو يراه، ولا يتغير شأن عن شأن إلا وهو معه، فهو في عزة علاه قريب منا، وفي تنزيه جبروته رحيم بنا،

يغفر لنا ما نرتكبه من ذنوب ويتوب علينا لنتوب، ويهدينا بفضله ويستر العيوب، فهو يعلم أن طبيعتنا توجب الخطأ، والخطيئة، فكتب على نفسه الرحمة، وفتح باب التوبة، لأنه التواب الرحيم، ورحمته قريب من المحسنين، يتنزل في الليل ليغفر لمسيء النهار، ويهدي بالنور من يشاء من الأخيار، وإذا تقربنا إليه شبراً تقرب إلينا ذراعاً، وإذا تقربنا إليه ذراعاً تقرب إلينا باعاً، وإذا أتيناه ماشين أتى إلينا هرولة، كل ذلك بفضل منه ورحمة.. إذا دعوناه أجابنا، وإذا أطعناه رحمنا، وإذا أحسنا أحسن إلينا، وإذا أحببناه أحبنا، وإذا اقتربنا إليه قربنا، وإذا طلبناه وجدناه قريباً منا، فسبحان الظاهر الذي تجلى بظهوره فلم يحجبه شيء، وخفي ببطونه فليس من دونه شيء، وهو الأول في أحديته، والآخر في واحديته، والقيوم في وحدانيته.. لا يحتاج إلى علة في وجوده، ينظر إلى العبد برحمته فيقر به بسجوده، ويدخله جنة شهوده.

الله واجب الوجود لذاته[1]، والله الاسم الأعظم العَلَم الدال على الذات الإلهي جامع للأسماء الحسنى كلها الرحمن في إلوهيته**{قُلِ ادْعُوا الله أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى}** [الإسراء: ١١٠] وحضرة الأسماء الحسنى ذات فعالية وتأثير بطاقتها القديمة الباقية في اتصالها المؤثر في المظاهر المخلوقة والحقائق الموجودة كلها، الظاهرة والباطنة التي تعتبر مرائي تعكس (الآيات) والأسماء الدالة على الحق، الله رب الوجود ورب العالمين**{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** [فصلت: ٥٣]، والآيات في كتاب الله الكوني والإنساني هي نفسها الآيات في كتاب الله القرآني، كلهم

---

(١) واجب الوجود لذاته هو الذي لا يحتاج إلى سبب أو علة أو غيره في وجوده، وهو عكس ممكن الوجود.

يَدُلُّون على الحق النوري فيهم لأن الله تعالى خالقهما هو نور السماوات والأرض، والقرآن نور، والكون نور ذري مكهرب والإنسان نور بروحه، وكتاب بطاقاته الجسدية والعقلية والنفسية والروحية، وظهور الأسماء الحسنى (الله) في المظاهر المخلوقة يكون بالقدرة المعجزة أحياناً دون وساطة وأحياناً أخرى بالقوانين أو السنن الكونية بأسبابها ومسبباتها، ليتقرر الفرق بين المشيئة والقدرة الإلهية وبين المشيئة والقدرة الإنسانية**{وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً}** [الإنسان: ٣٠]، والله صاحب المشيئة النافذة والأمر المنجز**{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [يس: ٨٢]، في قضائه وقدره الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل والمسطور في أم الكتاب، القرآن القديم غير المخلوق، قرآن الذات الذي تنزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا من الله تعالى بواسطة الروح الأمين جبريل على قلب النبي الخاتم بلسان عربي مبين**{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}** [الدخان: ٥٨] وفي سورة الشعراء**{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}** [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وذلك بالتيسير من أجل الذكر والتذكر**{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}** [القمر: ٢٢]، ومحمد ﷺ مرسل رحمة للعالمين، القرآن معجزته، ودعوته وحجته، وهديه وهدايته، ودينه ودولته.

وقد آثرنا الإحجام عن مناقشة أقوال وحجج الفرق الشيعية المختلفة والخوارج وفرقهم المختلفة ومنهم الجهمية أتباع جهم بن صفوان الذي آثار عدة قضايا منها الجبر والاختيار في أعمال الإنسان والنظر إلى الله في الآخرة، والأشاعرة والماتريدية والمعتزلة والصوفية المغالين والفلاسفة المارقين، وشيخ الإسلام الإمام أحمد تقي الدين ابن تيمية الذي يقول عنه الأستاذ الدكتور

رشيد الصقلي (التونسي) أنه - أي ابن تيمية - تراجع عن بعض آرائه قبل وفاته سيما المتعلقة بصفات الله وتكفير أهل القبلة، وكان رضي الله عنه يقول: " القرآن معنى قائم بذات الله وهو صفة من صفات ذاته القديمة الأزلية، غير مخلوق وليس بحرف ولا صوت " [(١)]. تاركين الرجوع إليها في مصادرها لمن يشاء، وكذلك " رسالة التوحيد " لأستاذنا الشيخ الإمام محمد عبده. وقد تحدثنا في رسالتنا في التوحيد بلغة عصرنا جامعين بين المنقول والمعقول مؤثرين كتاب الله وسنة رسوله ◘ على كل ما سواهما ومما فهمنا وادكرنا منهما ومما فهمنا واطلعنا عليه من علوم العصر خاصة في مبحث الطاقة التي هي السر الساري في هذا الوجود الذي خلقه الله سبحانه وتعالى وكل مخلوقاته وكائناته التي أوجدها الله سبحانه وتعالى بقدرته وهو الخالق البارئ المصور لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، قد وسع كل شيء علماً، كما أنه فوق كل ذي علم عليم ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، كيف شاء ومتى شاء. رحم الله الخليفة الرابع لرسول الله ◘ الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي روي عنه أنه قال: " ليس كل ما يعرف يقال ولا كل ما يقال جاء أوانه ولا كل ما جاء أوانه ظهر أهله ". وعلى كل حال فرؤيتنا في رسالة في التوحيد ليست نهائية لأن العلم والمعرفة دائمان الترقي والزيادة ويجلبان معهما دائماً الزيادة في المجهول وغير المعروف. والقرآن الكريم لا يتعارض مطلقاً مع العلم بل إنه يحتوي على العلم اليقيني في أعظم قضايا الإنسان والكون في عالمي الغيب والشهادة، لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، وهم

---

(١) كما جاء في كتاب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي تلميذ ابن تيمية، وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (راجع مجلة " الإسلام وطن "، العدد ٣٠٩، أبريل ٢٠١٢، ص ١٨ - ١٩.

الذين يؤمنون به كلٌ من عند ربهم.

وإني أنبه القارئ إلى أن ما أكون قد أصبت وجه الحق فيه من الفهم فيما جاء في رسالة التوحيد فهو من توفيق الله وفضله عليَّ، أما ما أكون قد أخطأت الفهم والرؤية فيه فمن عجلتي ونسياني وقصور فهمي، اسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفره لي وأن يهديني ويرشدني إلى الحق والصواب أين كان وكيف كان وممن كان، سبحانه وتعالى عما يصفون علواً كبيرا، نعبده ونوحده ولا نحيط به علما ولا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه.

وحسبي الله وما توفيقي إلا بالله

المفتقر إلى الله وراجي عفوه ورضاه

محمد أمين جبر

* * *

تمهيد

بني الإسلام على قواعد خمس:

١- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

٢- إقام الصلاة.

٣- إيتاء الزكاة.

٤- صوم رمضان.

٥- حج البيت من استطاع إليه سبيلا.

ويعبر لفظ الجلالة " الله " عن قدر من القدرة والقوة ليس كمثله شيء في كل شيء، فالشيء محدود بطبيعته ومن هنا فإن من ليس كمثله شيء يكون غير محدود وليس له، نتيجة لذلك، كفواً أحد، وهو " الله " الاسم العلم، الرمز اللغوي الدال على الذات الإلهي المعبود في الأديان السماوية كلها من لدن هدى آدم الأول وحتى هدي خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ. وفيما يلي ما أورده القرآن من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى:

الأسماء الحسنى:

تنقسم إلى أسماء جمال وأسماء جلال وأسماء كمال[(١)]**{قُلِ ادْعُوا الله أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى}** [الإسراء: ١١٠]،**{ولله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}** [الأعراف: ١٨٠]،**{الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى}** [طه: ٨] والأسماء التي وردت في القرآن:

(١) عشرة أسماء ذاتية كمالية منها (الله) و(النور) وتسعة عشر جلالية منها (القهار) و(الجبار) و(المنتقم) وسبعون جمالية منها (الرحيم) و(الحليم) و(الكريم).

الله - الرحمن - الرحيم - الملك - القدوس - السلام - المؤمن - المهيمن - العزيز - الجبار - المتكبر - الخالق - البارئ - المصور - الغفار - القهار - الوهاب - الرزاق - الفتاح - العليم - القابض - الباسط - الخافض - الرافع - المعز - المذل - السميع - البصير - الحكم - العدل - اللطيف - الخبير - الحليم العظيم - الغفور - الشكور - العلي - الكبير - الحفيظ - المقيت - الحسيب - الجليل - الكريم - الرقيب - المجيب - الواسع - الحكيم - الودود - المجيد - الباعث - الشهيد - الحق - الوكيل - القوي - المتين - الولي - الحميد - المحصي - المبدئ - المعيد - المحيي - المميت - الحي - القيوم - الواجد - الماجد - الواحد - الصمد - القادر - المقتدر - المقدم - المؤخر - الأول - الآخر - الظاهر - الباطن - الوالي - المتعالي - البر - التواب - المنتقم - العفو الرؤوف - مالك الملك - ذو الجلالة والإكرام - المقسط - الجامع - الغني - المغني - المانع - الضار - النافع - النور - الهادئ - البديع - الباقي - الوارث الرشيد - الصبور

وهذه الأسماء - وعددها تسعة وتسعون[١] ليست هي كل الأسماء التي سمى الله بها نفسه أو أنزلها الله في كتابه، أو جاءت في أحاديث نبيه، أو علمها الله أحداً من خلقه أو استأثر بها في علم الغيب عنده،

(١) لم يحدد القرآن الكريم عدداً للأسماء الحسنى، أما أحاديث أخبار الآحاد المتعلقة بالأسماء الحسنى والمنسوبة إلى النبي ﷺ فإذا وافقت القرآن كان ذلك دليلاً يرجح صحة نسبتها إلى النبي ﷺ، وإذا لم توافق القرآن كان ذلك دليلاً يرجح عدم صحة نسبتها إلى النبي ﷺ. وقد ذهب المرحوم الأستاذ الشيخ / عبد الوهاب النجار أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية أصول الدين في كتابه " قصص الأنبياء " إلى أن الخبر الوارد عن المعصوم ﷺ إذا كان رواته آحاداً فلا يصح أن يكون دليلاً على الأمور الاعتقادية، لأن الأمور الاعتقادية الغرض منها القطع، والخبر الظني الثبوت أو الدلالة لا يفيد القطع.

وكل اسم من هذه الأسماء إما أن يدل على صفة كمال أو على صفة وجود أو على صفة سلب " تنزيه " أو على صفة فعل.

الله

- هو الاسم الجامع للصفات الإلهية، الموصوف بصفات الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي بذاته، وكل موجود ليس له وجود بذاته، وهذا الاسم دال على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منها شيء.

الرحمن الرحيم

- الرحمن أخص من الرحيم، ولذلك لا يسمى به غير الله، والرحيم قد يطلق على غيره، والاثنان مشتقان من الرحمة، والرحمن هو العطوف على العباد بالإيجاد أولاً، وبالهداية إلى الإيمان ثانياً، والإسعاد في الآخرة ثالثاً، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعاً.

الملك

- هو الذي يستغنى في ذاته وصفاته عن كل شيء موجود، باعتباره الملك ولكن لا يستغنى عنه خلقه في شيء، لا في ذاته، ولا في بقائه، ولا في وجوده ولا في صمديته[١]

القدوس

- هو المنزه عن كل وصف يدركه الحس، أو يتصوره الخيال، أو يسبق إليه الوهم، أو يختلج به الضمير، أو يفضي به تفكير.

السلام

- هو الذي تسلم ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر، وكل سلامة في الوجود منسوبة إليه، وصادرة منه.

(١) الصمد هو المقصود في الحوائج.

المؤمن

- هو الذي يعزي إليه الأمن، ولا يتصور أمن وأمان إلا منه، وهو بذلك يعتبر المؤمن المطلق.

المهيمن

- القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم، وآجالهم، وقيامه عليهم هو بإطلاعه، وسيطرته، وحفظه.

العزيز

- هو الشديد القوي الذي لا يغلب.

الجبار

- هو الذي تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل واحد، ولا تنفذ مشيئة أحد فيه والذي لا يخرج أحد عن قبضته بحيث يجبر كل واحد ولا يجبره أحد.

المتكبر

- المنفرد بالعظمة والكبرياء، المتعالي عن كل ما سواه، الكريم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

الخالق - البارئ - المصور

- الله تعالى خالق من حيث إنه مقتدر، وبارئ من حيث إنه موجد، ومصور من حيث إنه مرتب صور الموجودات أحسن ترتيب، وكل ما يخرج من العدم إلى الوجود فيفتقر إلى التقدير أولاً، وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً.

الغفار

- هو إظهار الجميل، وستر القبيح، والغفر هو الستر، أي: التجاوز عن ذنوب عباده.

القهار

- هو الذي يقصم ظهر الجبابرة من أعدائه فيقهرهم بالإماتة، والإذلال، وكل الموجودات مسخرة تحت قهره، وقدرته، وعاجزة، عن قبضته.

الوهاب

- الهبة هي العطية الخالية عن الأعواض، والأغراض، والله هو الذي يعطي كل محتاج لا لعوض، أو لغرض عاجل، أو آجل.

الرزاق

- هو الذي خلق الأرزاق والمرتزقة، أوصلها إليهم، وخلق لهم أسباب التمتع بها.

الفتاح

- هو الذي بعنايته ينفتح كل منغلق وبهدايته ينكشف كل مشكل.

العليم

- هو المحيط علماً بكل شيء، وكل المعلومات مستفادة منه.

القابض - الباسط

- هو الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، ويقبض الصدقات من الأغنياء، ويبسط الأرزاق للضعفاء، ويبسط الرزق على الأغنياء حتى لا يبقى فاقة، ويقبضه عن الفقراء حتى لا يبقى طاقة.

الخافض - الرافع

- هو الذي يخفض الكفار بالإشقاء، ويرفع المؤمنين بالإسعاد، ويرفع أولياءه بالتقريب، ويخفض أعداءه بالإبعاد.

المعز - المذل

• هو الذي يؤتي الملك من يشاء، ويسلبه ممن يشاء، الملك الحقيقي هو في الخلاص عن الحاجة، وقهر الشهوة، وعيب وصم الجهل.

السميع

• هو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، ويدري دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة المظلمة، ويسمع حمد الحامدين فيجازيهم، ودعاء الداعين فيستجيب لهم، وسمعه منزه عن أن يتطرق إليه حدث.

البصير

• هو الذي يشاهد، ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى، وإبصاره منزه عن الأحداث، وهو في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال أوصاف المبصرات.

الحكم

• هو الحاكم المحكم، والقاضي المسلم الذي لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه.

العدل

• هو العادل الذي يصدر منه فعل العدل المضاد للجور، والظلم.

اللطيف

• هو الذي يعلم دقائق المصالح، وغوامضها ما دق منها، وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف.

الخبير

• هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة، ولا تسكن، ولا يضطرب نفس،

ولا يطمئن إلا عنده خبره.

الحليم

• هو الذي يشاهد معصية العصاة، ويرى مخالفة الأمر، لا يستفزه غضب، ولا يعتريه غيظ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام عجلة، رغم غاية الاقتدار.

العظيم

• هو الذي جاوز جميع حدود العقل حتى لم يتصور الإحاطة بكنهه.

الغفور

• هو بمعنى الغفار، ولكنه يدل على نوع مبالغة لا يدل عليه الغفار الذي هو مبالغة في المغفرة بالإضافة إلى مغفرة متكررة مرة بعد أخرى.

الشكور

• هو الذي يجازي يسير الطاعات بكثير الدرجات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيماً في الآخرة غير محدود، ويجازي الحسنة بأضعافها.

العلي

• هو الذي لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب دونه.

الكبير

• هو ذو الكبرياء، والكبرياء عبارة عن كمال الذات، وكمال الذات هو كمال الوجود أزلاً وأبداً، ويصدر عنه وجود كل موجود.

الحفيظ

• هو الحافظ الذي يحفظ كما في إدامة الموجودات وإبقائها، كما

في صيانة المتعاديات، والمتضادات بعضها عن بعض.

المقيت

- هو خالق الأقوات، وموصلها إلى الأبدان، وهي الأطعمة، وإلى القلوب وهي المعرفة.

الحسيب

- هو الكافي، وهو الذي من كان له كان حسبه، والله تعالى حسيب كل أحد وكافيه.

الجليل

- هو الموصوف بصفات الجلال مثل الغني، والملك، والقدوسية، والعلم، والقدرة وغيرها.

الكريم

- هو الذي إذا وعد وفى وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يُسأل كم أعطى؟ ولمن أعطى؟ ولا يضيع من لاذ به والتجأ إليه، ويغنيه عن الوسائل والشفاعات.

الرقيب

- هو العليم الحفيظ، فمن راعى الشيء حتى لم يغفل عنه، ولاحظه ملاحظة دائمة سمى رقيبه.

المجيب

- هو الذي يقابل مسألة السائلين بالإسعاف، ودعاء الداعين بالإجابة، وضرورة المضطرين بالكفاية، بل ينعم، ويتفضل قبل الدعاء.

الواسع

- مشتق من السعة، والسعة تضاف مرة إلى العلم إذا اتسع،

وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم.

الحكيم

- هو ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة الأشياء بالعلم الإلهي، والحكيم هو المحسن في التدبير، العادل في التقدير.

الودود

- هو الذي يحب الخير لجميع الخلق فيحسن إليهم، ويثني عليهم، وهو قريب من معنى الرحيم إلا أن أفعال الرحيم تستدعي مرحوماً ضعيفاً، وأفعال الودود لا تستدعي ذلك، بل الإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود.

القوي - المتين

- القوة تدل على القدرة التامة، والمتانة تدل على شدة القوة.

الولي

- هو المحب الناصر الذي يتولى شؤون خلقه بإحسانه، وتوفيقه، وعونه ونصره.

الحميد

- هو المحمود المثني عليه والله - تعالى - هو الحميد بحمده لنفسه أزلاً، وبحمد عباده له أبداً.

المحصي

- هو العالم، وهو الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم، وعدده، ومبلغه، وإذا أضيف العلم إلى المعلومات من حيث إحصائها، وعدها، والإحاطة بها كان ذلك هو الإحصاء.

المبدئ - المعيد

• هو الموجد، وإذا كان الإيجاد غير مسبوق بمثله سمى إبداء، وإذا كان مسبوقاً بمثله سمى إعادة، والأشياء كلها منه بدأت وإليه تعود، وبه بدأت وبه تعود.

المحيي - المميت

• صفتان ترجعان إلى إيجاد، ولكن الموجود إذا كان هو الحياة يسمى فعله إماته، ولا خالق للموت أو الحياة إلا الله - تعالى - فلا محيي، ولا مميت إلا الله.

الحي

• هو الفعال الدراك حتى إن ما لا فعل له أصلاً ولا إدراك فهو ميت، والحي الكامل المطلق هو الذي يندرج جميع المدركات تحت إدراكه، وجميع الموجودات تحت فعله، حتى لا يشذ عن علمه مدرك، ولا عن فعله مفعول.

القيوم

• هو الموجود الذي يكتفي ذاته بذاته، ولا قوام له بغيره، ولا يشترط في دوام وجوده وجود غيره، فهو القائم بنفسه مطلقاً، به يقوم كل موجود ولا يتصور للأشياء وجود، ولا دوام وجود إلا به، فقوامه بذاته، وقوام كل شيء به.

الواجد

• هو الذي لا يعوزه شيء، ويوجد كل ما يريد فلا يعجزه مطلوب.

الماجد

• كالمجيد، وهو الشريف ذاته، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه ونواله.

الواحد

- هو الذي لا يتجزأ، ولا يثني.. ويستحيل تقدير الانقسام في ذاته.

الصمد

- هو الذي يقصد إليه في الحوائج، والرغائب جميعها.

القادر - المقتدر

- ذو القدرة، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وهو الذي يخلق كل موجود خلقاً ينفرد به ويستغنى به عن معاونة غيره.

المقدم - المؤخر

- هو الذي يقرب ويبعد، فمن قربه فقد قدمه في الرتبة، ومن أبعده فقد آخره في الرتبة.

الأول - الآخر

- هو الذي ليس قبله شيء، وليس بعده شيء.. لا بداية لأوليته، ولا نهاية لآخريته.

الظاهر - الباطن

- هو الذي احتجب عن الخلق بنوره، وخفي عليهم بشدة ظهوره فهو الظاهر الذي لا أظهر منه، وهو الباطن الذي لا أبطن منه.

الوالي

- هو الذي دبر أمور الخلق، تولاها بولايته.

المتعالي

- هو العلي مع المبالغة.

البـر

- هو المحسن الذي منه كل مبرة وإحسان.

التواب

- هو الذي يرجع إليه تيسير التوبة لعباده مرة بعد أخرى.

المنتقم

- هو الذي يقصم ظهور العتاة، وينكل بالجناة، ويشدد العقاب على الطغاة، وذلك بعد الإعذار، والإنذار، وبعد التمكن والإمهال.

العفو

- هو الذي يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، والعفو يؤدي إلى المحو فالعفو عن السيئات مثلاً هو محوها.

الرؤوف

- هو ذو الرأفة، والرأفة هي شدة الرحمة، فهو بمعنى الرحيم مع المبالغة.

مالك الملك

- هو الذي ينفذ مشيئته في مملكته كيف شاء وكما شاء، إيجاداً وإعداماً وإبقاء وإفناء.

ذو الجلال والإكرام

- هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له، ولا كرامة، ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه، فالجلال له ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه.

المقسط

- هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم، ويفيد العدل المطلق.

الجامع

- هو المؤلف بين الأشياء المتماثلة، والمتباينة والمتضادة، مما نعرف، ومما لا نعرف.

الغني - المغني

- هو الذي لا تعلق له بغيره، لا في ذاته، ولا في صفات ذاته، بل يكون منزهاً عن العلاقة مع الإغيار، فالغني الحقيقي هو الذي لا

حاجة له إلى أحد أصلاً.

المانع

- هو الذي يمنع أسباب الهلاك، والنقصان بما يخلقه من الأسباب المعدة للحفظ.

الضار - النافع

- هو الذي يصدر منه الخير، والنفع، والضر.

النور

- هو الظاهر به كل ظهور، فإن الظاهر في نفسه لغيره يسمى نوراً.

الهادي

- هو الذي يدل على الطريق، والسلوك المفيد.

البديع

- هو الذي لا عهد بمثله لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في كل أمر راجع إليه.

الباقي

- هو الموجود الأبدي الواجب الوجود بذاته.

الوارث

- هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملك، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مرجع كل شيء، ومصيره.

الرشيد

- هو الذي تتناسق تدبيراته إلى غاياتها بالسداد من غير مشورة، أو إرشاد من الغير.

الصبور

- هو الذي لا يحمله أي شيء على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه يجري الأمور على سنن محددة لا يؤخرها عن آجالها، ولا يقدمها على أوقاتها، بحيث يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون.

وكما يخبرنا القرآن فإن الله له صفة الفعل الدائم المتصل بوجوده الدائم الذي ليس له بداية في أوليته وليس له نهاية في آخريته، وهو بهذه الصفة لم يتولد أو يتوالد من شيء، كما لم يتولد أو يتوالد منه شيء، فليس في ذاته من غيره شيء، وليس من غيره من ذاته شيء، أي ليس في الخلق إلا الخلق، وليس في الذات إلا الذات.

ولما كان من أسماء الله وصفاته، الظاهر الباطن، فقد تجلى سبحانه لكل ما سواه من الخلق، فهو قد صنع الوجود بقدرته " كن فيكون " وأمسكه أن يزول بقوته " قوة الربط في الذرة " وسن قوانينه بطاقته " الأسباب والمسببات " وخلق الموت والحياة بحكمته من قدرته " العمل - الحساب - الجزاء " وبذلك كانت المخلوقات كلها دالة على الآيات فيها، وكانت الآيات دالة على الأسماء والصفات في تجليها وكانت الأسماء والصفات دالة على أحدية الذات في التنزيه اللائق بها.

إن القدر الهائل والعظيم من القدرة والقوة الذي يتصف به الله سبحانه وتعالى، هو قدر لا يمكن تخيله أو تصوره أو تمثله، أو إحصائه أو تقديره ولذلك يخبرنا القرآن أن من أسمائه وصفاته سبحانه " القدوس " الذي يعني أنه المنزه عن كل وصف يدركه الحس أو يتصوره الخيال أو يسبق إليه الوهم أو يختلج به الضمير أو يفضي به تفكير، ومن هنا يخبرنا القرآن الكريم أيضاً أن القمة العليا في مستويات التوحيد هي توحيد الله لله**{شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}** [آل

عمران: ١٨] أي توحيد الذات الإلهي للذات الإلهي؛ لأن العلم بالذات فضلاً عن العلم بالغير أول صفات الكمال المطلق وما يتصل به من وعي وإدراك، وهي الحقيقة التي أوضحها لنا رسول الله ﷺ في قوله:♂**سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**، وفي بيان هذا النقص المعلوماتي في تقدير المخلوق للخالق يخبرنا القرآن{**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**} [الزمر: ٦٧].

إن قدرة الذات الإلهية تنصب على خلق الذوات المغايرة وخلق العمل أو الفعل{**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**} [الصافات: ٩٦] فذات الإنسان مثلاً حرة ومختارة، ولكنها حين تعمل أو تنشط أو تفعل أو تأتي شغلاً فإنها تحتاج إلى طاقة، والطاقة " بمعنى القدرة " كما ذكرنا، ناتجة عن الأسماء الحسنى وفاعليتها التأثيرية الإيجابية، فالحي أوجد الحياة، والقادر أوجد القدرة، والمريد أوجد الإرادة، والقوي أوجد القوة، والسميع أوجد السمع، والبصير أوجد البصر.. وهكذا، والذات الإنسانية فيها هذه الصفات، وهي مخلوقة في الإنسان بقدرة الله سبحانه وتعالى، فكل صفة من هذه الصفات كما تظهر في الإنسان، تفتقر إلى فاعلية وتأثير وإيجابية نفس الصفة التي يتصف بها الإله ولكن في غير مثليه بين الصفات الإلهية والصفات الإنسانية{**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**} [ص: ٧٢].

الطاقة في الكون:

إن كل إنسان له طاقة محدودة ومتناهية لإتيان عمل أو فعل معين، جسدي أو ذهني، وكل اسم أو صفة من الأسماء الحسنى والصفات العلا له طاقة غير محدودة وغير متناهية، لإتيان عمل أو فعل معين، لأن طاقة الاسم غير طاقة الإنسان، فطاقة الاسم غير

محدودة ولا نهائية، كما أنها غير متصورة في قدرها لأنها لا تدخل فيها المادة أو الكتلة أو الجسمية أو أية صورة من صور الطاقة الكونية كما نعرفها، بينما طاقة الإنسان محدودة ومتناهية ومتصورة وتدخل فيها اعتبارات الجسم والكتلة والمادة والقوى والطاقات الكونية المختلفة**{رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ}** [البقرة: ٢٨٦]، أي لا تحملنا ما لا قدرة لنا عليه إلا بمشقة بالغة، أو على عمله سواء كان العمل وتبعاته مادياً أو ذهنياً أو معنوياً، عقلياً أو روحياً، إننا نقول إن الله سميع بصير، والإنسان سميع بصير، ولكن صفة السمع والبصر في نسبتها إلى الله مختلفة تماماً ومتباينة كلياً عما هي عليه في نسبتها إلى الإنسان، وهكذا الإرادة والقدرة والقوة والأمر والإبداع والحكمة والعلم والحياة.. إلخ لأن القرآن يخبرنا أن الله بأسمائه وصفاته**{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}** [الشورى: ١١]، ومن هنا فإن قدرة الله على الفعل والخلق والإيجاد ليس كمثلها قدرة كما أن قوته ليس كمثلها قوة، إلى آخر الأسماء والصفات الحسنى.

إن الطاقة في الكون بكل كائناته متكافئة مع المادة أي الكتلة، ويمكن تحويل كل منهما إلى الآخر " كما نعرف من النظرية النسبية الخاصة " [(١)] بينما الطاقة الأسمائية لا تتحول إلى مادة ولا إلى أي شيء آخر غيرها، فهي تغير ولا تتغير، وهي باقية دائمة لأن الله سبحانه وتعالى هو الباقي والدائم وهو الأول والآخر**{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ}** [ق: ٣٨]، وستة أيام تشير إلى البعد الزماني وهو البعد الرابع من الأبعاد الأربع التي نعرفها في الكون الذي نعيش فيه، ولغوب يعني تعب أو نصب أو إعياء، كما أوضحنا من قبل.

(١) التي وضعها ألبرت أينشتاين الرياضي والفيزيائي المعروف عام ١٩٠٥.

إن الطاقة تقترن بالقدرة، والقدرة تقترن بالقوة، والقوة تقترن بالأمر، والأمر يقترن بالإرادة، والإرادة تقترن بالذات الإلهي سبحانه وتعالى، وفي الطبيعة فإن القوى تحيط بنا من كل جانب، والقوى هي عبارة عن دفع أو شد يؤثر في الجسم أو الكتلة أو المادة، بحيث إن الجسم المتحرك يبقى متحركاً ما لم تعمل قوة على إيقافه، والقوى الأساسية في الكون - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - هي الجاذبية والكهربية المغناطيسية والقوى النووية الشديدة والقوى النووية الضعيفة، وجميع ما تبقى من القوى فمستمد بشكل أو بآخر من هذه القوى الأساسية، ويخبرنا العلماء أن القوى الكهربائية والمغناطيسية والقوى النووية الضعيفة هي في الحقيقة مظاهر لقوة واحدة هي القوة الكهروضعيفة " الكهروواهنة " [١]، ويحاول العلماء منذ فترة إيجاد الدليل على النظرية الموحدة العظمى أو نظرية المجال الموحد التي تقول بوجود علاقة تربط بين الجاذبية والقوى النووية الشديدة وبين القوى الكهروضعيفة، وفي اعتقادنا أن العلماء لابد أن يصلوا إلى ما يتطلعون إليه لأنه يعكس وحدة القوى التي تدل دلالة قاطعة على وحدة موجدها وخالقها الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد، وكما يقول الدكتور مصطفى محمود:

" فإن جميع الأشياء، الحي منها والميت، مخلوقة من خامة واحدة، ومركبة بخطة واحدة، فكلها بدأت بذرة بسيطة هي ذرة الإيدروجين، انفرطت وأعيد ترتيبها داخل الأفران النجمية الهائلة إلى العديد من التواليف هي ذرات العناصر المعروفة التي من واحد منها هو الكربون نشأت المادة الحية ومنها جاءت الأحياء كلها، هذه الأحياء " نبات وحيوان وإنسان " بنيت أيضاً بخطة واحدة وأسلوب

(١) أثبتت ذلك في عام ١٩٧٩ أعمال كل من شيلدن جلاشو وستيفن وإينبرج وعبد السلام " الباكستاني ".

واحد فهي من خلال متشابهة في الجميع تتنفس وتتكاثر وتتحرك وتتغذى وتطرد مخلفاتها بطرق واحدة وبأعضاء متشابهة وأجهزة متشابهة وقوانين متشابهة، ثم هي تموت وتتعفن وتتحلل إلى تراب بتحولات كيمائية واحدة، مما يعني أن خالقها لابد أن يكون واحداً، هو الله الذي نطلبه، وهو فوق إدراك وسائل العلم، ومتعال على الحواس، وهو من وراء الأسماع والأبصار لا تحده أبعاد الزمان والمكان ". انتهى.

* * *

الفصل الأول

مفهوم الإله في القرآن

الفصل الأول

مفهوم الإله في القرآن الكريم

تناول القرآن الكريم العقيدة في " الله " في تجريد لمعاني الألوهية من كافة الخرافات والأساطير والتصورات والتخيلات والماديات والتجسيدات والقيود والتحيزات والتشبيهات، وربط هذه المعاني بفكرة منزهة أو رمز أو مثال دال على " الذات المعبود " له أسماء وصفات متصلة ومتوحدة في حقيقة مرموز إليها بلفظ " الله "، تدل على الذات الواحد وعلى أسمائه وصفاته من خلال تجليه في الكون وفي كل الكائنات والقوى والطاقات المخلوقة.

إن على الإنسان أن يزيد من معارفه عن الكون ومادته وطاقته، وقواه، عن كواكبه ونجومه، عن مجراته وسدمه، عن قوانينه ونظامه في الأفلاك والذرات، عن الكائنات الحية العاقلة، عن الإنسان وبنائه العضوي والعقلي.. إلخ، على الإنسان أن يسلك طريقاً معرفياً من خلال الكون الذي يحيا على كوكب من كواكبه في مجموعة من مجموعاته في مجرة من مجراته، فيما هو منظور له من أفق المنظور واللامنظور لتزداد معرفته بالمخلوقات وبالتالي بالخالق سبحانه، بقراءة آيات الكون المسطور بأحرف من نور في كتاب الوجود، يلج بعقله وبروحه آفاق هذا الكون الفسيح الممدود وآفاق نفسه من كونه، ليرتقي في معارج المعرفة والعلوم، ويقترب من معرفة معاني أسماء وصفات الإله الحق.

لقد خاطب القرآن عقل الإنسان موجهاً إياه للنظر والبحث في حقيقتين قائمتين، التركيب الإنساني ذاته بوحدته العضوية القلبية والروحية والتركيب الكوني بوحدته المادية الطاقية:

- يبحث في الخلق وأسلوبه وأشكاله والقوانين أو السنن التي تحكم حركة المخلوقات في الأرض.

- يبحث في النجوم وطاقاتها وأنوارها السارية وخواص هذه الأنوار والأضواء.

- يبحث في المادة وتكوينها الذري، وحقائق التركيب الذري وما يتصل بها من تفتيت والتحام وحركة ونظام وخواص وطاقات.

- يبحث في الحركة الفلكية يستنتج منها أفكار الزمان والتقويم الزمني والحساب الزمني.

- يبحث في الطاقات المسخرة له في إطار كوكبه الممهد لحياته وتطورها في ترقي وتكمل.

- يبحث في عجائب المخلوقات على الأرض، فوق سطحها، وفي باطنها، وفوق مياهها، وفي أعماقها، وفي أجوائها.

- يبحث في عوالم الجماد، وعوالم النبات، وعوالم الحشرات والحيوان والطير... إلخ.

- يبحث في عالم نفسه، وحقائق تركيبه العضوي ونشاطه العقلي والروحي.

- يبحث في طبقات السماء الدنيا والأجواء ليخترقها بما أوتى من سلطان قادر على النفاذ من أقطارها بالعلم.

في ذلك كله، وفي غيره، نزلت نصوص الكتاب العربي ليقرأ قرآناً على الناس على مكث ليتدبروه، ميسراً للذكر ليعلموه، متدرجاً في البناء ليقيموه، ينطلق الإنسان في وجود نفسه ووجود الكون الخارجي، يشهد الحقائق الطبيعية أو الأسمائية، مدركاً على قدره مقادير إتقان صنعها ودرجات سعتها وكثرة صورها، واختلاف أشكالها، واستمرار حركتها، ودوام امتدادها وحقيقة إطلاقها، وطبيعة قوانينها أو سننها، وسر وحدتها وقدر مجهولها.. ليبني من خلال هذا المعارف عقيدته في " الإله " ويسلك عن طريق الكون المادي

والطاقي مسالك المعرفة المرتبطة بالحواس وبإدراكه الزائد عن الحواس " أي طاقته الروحية " في الطريق المكتشف لعظمة وقدرة " الله " سبحانه، الاسم الجامع الدال على " الذات المعبود " الذي ليس " كمثله " شيء في كل شيء سبحانه وتعالى عما يصفه الواصفون، أو يتخيله المتخيلون، أو يتصوره المتصورون.

{هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السماوات وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: ٢١ - ٢٤].

لقد ألقى الله سبحانه وتعالى على قلب النبي المصطفى ﷺ قولاً ثقيلا، قرآناً باسم الله الذي خلق الحياة وخلق الإنسان والكون وكل المخلوقات فيه وكان محمد النبي المصطفى الخاتم ﷺ على مستوى هذا القول الثقيل المعنى في معرفة الحق، ولذلك كان يقوم الليل كثيراً مقرناً المعرفة بالعبادة وكان أشد الناس خشية لله، وكان يوجه الناس إلى التفكير في الكون والكائنات ليتحقق الإيمان المقترن بالعلم وتتحقق معه الرغبة والرهبة. والحق أنه لا يدرك معاني الرهبة والخوف المؤديين إلى كثرة السجود وسهر الليل في التفكير والتأمل والتعبد، إلا فرد من الناس عرف في الكون المحيط الخارجي وفي الكون الداخلي في النفس والجسم، آفاقهما وأسرارهما وطاقاتهما وخواصهما، وخبر ما فيهما من جلال مخيف ومحير، كما أنه لا يداوم على أداء هذه العبادة المضنية والتأملات الفكرية في إخلاص طوية للإله المعبود دون شريك، إلا فرد من الناس خبر ما في الكون المحيط الخارجي وما في الكون الداخلي في الجسم والنفس، من جمال مدهش وجنباً إلى جنب مع الجلال المحير، فاتجه مع هذا

الإدراك للجمال والجلال، إلى الذات المعبود اتجاهاً فيه أنس، والرؤيا فيه نور، والأمر فيه وصل في خشية عن علم، وشهود في تأويل عن رسوخ في العلم، وكما سبق ذكرنا فإن الإنسان يمكنه أن يصل إلى الحقيقة عن طريق وجهها الطبيعي فقط أو وجهها القرآني فقط فيشهد عندئذٍ - وحدة الحقيقة - في الكتابين الإلاهيين، الطبيعة والقرآن وهما " نور وطاقة ".

بذلك يرث العلماء والراسخون في العلم الأنبياء - في العلم وفي درجات الخشية والخوف من الإله الحق - كلهم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن انكمش في نفسه إجلالاً وإعظاماً، فهم كاشفون للحقيقة دالون على عظمة الحق، ولذلك أيضاً قال عالم الرياضيات والفيزياء الشهير " ألبرت إينشتاين ": [إن ديني يتكون من إعجاب واسع بالروح الأعظم غير المحدود الذي يكشف عن نفسه من خلال التفاصيل الدقيقة التي نستطيع أن ندركها بواسطة عقولنا العاجزة الضعيفة، هذا الاعتقاد العاطفي العميق بوجود قوة عاقلة عليا تظهر في الكون غير المدرك يكون فكرتي عن " الله "].

ويظل الإله الحق القدوس[١] فوق كل ما يتخيله عقل أو يصوره فكر، وذلك من واقع حقيقة المنظور واللامنظور في طاقات الكون وصورها المادية وهو الأمر الذي يقرره القرآن في قسمه{**بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ**} [الحاقة: ٣٨ - ٣٩]، ويبرزه في وضوح تام في تقريره{**وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**} [طه: ١١٠]، ومع ذلك فالسبيل مفتوح أمام العقل الإنساني لينشط في الطريق المؤدي إلى معرفة الإله وقدرته وحكمته وتدبيره من خلال الكون ومخلوقاته، المعرفة التي

(١) القدوس كما شرحنا في صفحة ٢٣ من التمهيد، هو المنزه على كل وصف يدركه الحس أو يتصوره الخيال أو يسبق إليه الوهم أو يختلج به الضمير أو يفضي به تفكير.

تليق به سبحانه وبأسمائه وصفاته، كما أن السبيل مفتوح أمام القلب والروح بالشفافية والإلهام والكشف للمعارف نفسها بالأبعاد الروحية.

الألوهية والكون:

والقرآن يخبرنا بأن هناك صلة قوية بين الألوهية وبين الكون وطاقاته وقواه، ومنابع الطاقة في الكون عديدة نذكر منها على سبيل المثال: أشعة الشمس والرياح والوقود " البترول، والفحم " والماء الجاري والأغذية العضوية والمتفجرات وحرارة باطن الأرض والكهرباء والجاذبية والذرة.. وغيرها، ومن الآيات القرآنية الدالية على هذه الصلة " الخالق والمخلوق " ما يلي:

١- **{اللّه الَّذِي رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** [الرعد ٢ - ٤].

٢- **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّه سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللّه بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}** [الحج: ٦٥].

٣- **{ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَباً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَباً مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ}** [عبس: ٢٤ - ٣٢].

٤- **{أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ**

إلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} [الملك: ١٩].

٥- **{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ}** [الرعد: ١٢].

٦- **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ}** [النور: ٤٣].

٧- **{اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [الجاثية: ١٢].

٨- **{أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}** [الواقعة: ٥٨ - ٦٤].

إذا عرفنا أن جل التفسيرات الإنسانية المتصلة بالإله المعبود، قبل القرآن قاصرة عن بلورة عقيدة متكاملة عن الإله وأسمائه وصفاته العلا في تنزيهها وكمالها، لخلصنا إلى أن الأسلوب القرآني يعتبر الأسلوب الأمثل الممكن عن طريقه الوصول إلى معرفة أسماء وصفات الإله وتقديره حق قدره في ظل عقيدة متكاملة وتصور تنزيهي شامل، وإدراك خصائص وأفعال الذات الإلهية لا يمكن أن يتم إلا إذا كانت هذه الذات، كما يقول الأستاذ " أبو الفيض المنوفي "[1]: " ممثلة بأضوائها في عالم مثل هذا الوجود الذي نعيش فيه، وتكون هي في ذاتها وفي وجودها الوجوبي منزهة عن كل صورة من صور الوجود الإمكان، أو تصورات متضامنة - فكل ما خطر

(١) في كتابة " المعرفة العظمى ".

ببالك تجد الله خلاف ذلك - لأنك لا تعرفه إلا به، أي بما هو مغروس في فطرتك قديماً من نوره، وفقط نستدل على وجود تلك الحقيقة الإلهية بهذا النشاط البارز في محيط خصائصها، والبادي في عقولنا وإحساسنا في كل شيء من الموجودات الإمكانية، وتكون تلك الفاعلية هي الأمر الدال على وجود الفاعل الإلهي.. وتظل الذات - في ذاتها - دائماً محجوبة ومنزهة عن العقل والحس، وما حجابها سوى مظاهر بقية نشاط خصائصها الإلهية التي تحرك بها سائر الكائنات، تكويناً وفاعلية وضرورة، من وراء ستار الكائنات، فتكمن فاعليتها الإلهية خلف أطياف سائر الصور والمظاهر الكونية وتكون في عالم الذات كأفكار عقلية مبصرة ثم تكون في عالم الموضوع الكوني كطاقة وحركة وسرعة، أو علل ثانوية وقوانين عامة " انتهى.

إن الله سبحانه وتعالى هو واجب الوجود[١] الأزلي الأبدي، أول بلا ابتداء، آخر بلا انتهاء، لا مكان ولا زمان يحدانه ولا بعد فيزيقي أو روحي يحتويه، وهو يظهر بالصفات ثم بالأفعال ثم بمجلي الذات، وظهوره بذاته لا يكون إلا لذاته، فلا يعرف الذات إلا الذات في المقام الذي عبر عنه الصوفية بقولهم: " العجز عن الإدراك هو قمة الإدراك "، وهو الأمر الذي يقرب إلى مفاهيمنا من خلال ما نعرفه عن قاعدة " اللاتحديد "، التي اكتشفها فيرز هيزنبرج عام ١٩٢٧ - والتي تضع حدا للقياس والمشاهدة فيما يتعلق بالمكان والسرعة في اللحظة ذاتها، وهما العاملان اللذان يعينان مركز الجسيمات الصغيرة جداً.

هناك حجب خارجية كثيرة تحجب الذات الإلهية عن كل من وما سواها، هذه الحجب هي التي يسميها الصوفية " الغير " لأنها ليست

(١) واجب الوجود هو الذي لا يحتاج إلى علة أو سبب أو غيره في وجوده.

العين أي عين الحق سبحانه وتعالى، وكل وجود دون مستوى الوجود الذاتي لله سبحانه وتعالى هو وجود حاجب، وبذلك لا يكون هناك وجود مخلوق إلا وهو وجود حاجب، لأنه يدخل في دائرة الغير كما وصفناها، ولكنه يعتبر في الوقت نفسه سلم الارتقاء وبراق العروج ووسيلة الترقي في الطريق المؤدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، ومن هنا كانت عملية إزالة الحجب في النفوس الإنسانية وفي الكون الخارجي التي يمارسها الصوفيون في سيرهم في الطريق إلى الله هي السبيل الأخلاقي اللازم للوصول إلى أرقى المعارف عن الله سبحانه وتعالى.

طالما وجد الإنسان ووجد الكون، وجد الحجاب، ومع ذلك فالإنسان والكون هما معراج الوصول إلى معرفة الله ضمن عملية إزالة الحجب، وهكذا يبدو التناقض الظاهري فقط في كون " المدارج " هي " المعارج "، و " المنازل " هي " المصاعد "، ويكون الإنسان بذلك حاجباً للحق عن نفسه بينما في نفسه سبيل الوصول إلى الحق، كما يكون الكون حاجباً للحق بينما هو في الوقت نفسه سبيل معرفة الحق.

الألوهية والإنسان:

إن الصلة بين الإنسان وبين الألوهية، صلة عميقة وأصيلة وأساسها " المعرفة " الناتجة عن النشاط العقلي والروحي، والمعرفة هي لب العبادة، وهي من معجزات العقل الإنساني المستمد بدوره من سر النفخة الربانية الروحية، فالعقل ليس إفرازاً عضوياً بحتاً كما يذهب إلى ذلك الماديون " فختة وغيره... "، إنما هو يتصل بالتركيب العضوي السوي للإنسان إلى جانب البيئة المحيطة التي تعتبر " مادة " المعرفة، والمخ - والجهاز العصبي المتقدم في الإنسان السوي - يستمد من الطاقة الكهربية ليؤدي نشاطه، والطاقة

الكهربية ذات صلة، وإن كانت غير معروفة الكنه، بالقدرة العقلية النابعة من النفخة الروحية ذات الصلة بمصدرها الرباني الإلهي (.. ونفخت فيه من روحي..) والقدرة العقلية بدورها قد تكون مرتبطة بالحواس أو زائدة عليها، وهي عندئذ عقل مجرد عن فسيولوجية الجسد وقوانينه الطبيعية التي تحكم نشاطه، أو بتعبير آخر هي روح مطلقة عن جسدها لها قدراتها وقوانينها الخاصة بها والتي ما زالت معرفتنا بها في دائرة " القليل " كما يخبرنا القرآن وتستمد في حالتها هذه من طاقة نورية لا نعلم عن طبيعتها شيئاً.

وبذلك تكون الذات الإنسانية بطاقاتها العقلية والروحية وما تتصف به من وعي وإدراك عاجزة عن إدراك كنه الذات الإلهية، لأن الذات الإنسانية بطبيعتها وبحكم وجودها في الدائرة الكونية ستظل تجهل كنه العديد من الظواهر والطاقات المتصلة بالكون، ومن باب أولى كنه الإله ذاته.

وكمبدأ عام، فإن الإلوهية لا يمكن لذلك أن تخضع لتجارب علومنا المادية، فذات الله سبحانه وتعالى من الغيب الذي لا يمكن إدراكه بالحواس**{لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ}** [الأنعام: ١٠٣].

ومن هنا يعجز العقل عن إدراك كنهه، ولهذا المعنى ذهب روبرت موريس بيج[١] Robert Morris Page إلى أن: " الإله الذي يسلم الإنسان بوجوده لا ينتمي إلى عالم الماديات ولا تستطيع حواسنا المحدودة أن تدركه، وعلى ذلك فمن العبث أن نحاول إثبات وجوده باستخدام العلوم الطبيعية لأنه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة الضيقة "، ولعل معلوماتنا عن بعض الطاقات الكونية التي ما زلنا نجهل " كنهها ". توضح مفهوم عدم قدرة العقل الإنساني على إدراك " كنه " الذات الإلهي ". ولنضرب مثلاً على ذلك

(١) هو مخترع الرادار عام ١٩٣٤.

بالكهرباء.. يقول الفيلسوف والرياضي البريطاني " برتراند راسيل "[(١)]: " الكهرباء ليست شيئاً مثل كاتدرائية القديس بولس مثلاً، إنها طريقة لتصرف الأشياء، وحينما تصف تصرف الأشياء عند كهربتها ونقول تحت أية ظروف تجري كهربتها، نكون قد قلنا كل ما لدينا أن نقوله ". انتهى. وبالنسبة للضوء - مثلاً - فما زالت توجد نظريتان تفسران جميع ظواهر الضوء، ولا يمكن تغليب إحداهما على الأخرى للفصل في حقيقة الضوء، والنظريتان هما نظرية الدقائق والنظرية الموجية، كل منها تفسر بعض الظواهر الضوئية، ودائرة المعارف البريطانية تقول عن الضوء: " إنه من المعاني الأصلية الأولى التي يعجز عن الوصول إليها أي معنى آخر أو معاني أخرى نسخرها لتفسيرها، فطبيعة الضوء لا يمكن تعريفها إلا بتعدد خواصه وببناء هذه الخواص على أبسط الأسس الممكنة، وبما أن هذه الأسس تعجز عن إدراكها خبرة هذه الحياة، فقد وجب أن نعبر عنها بصورة من صور المنطق البحت أي الرياضة.. وبذلك يمكننا أن نصف كيف يعمل الضوء، مستعينين بالتشبيهات والاستعارات، وهذا الوصف هو " حقيقة " الضوء ولا يمكن أن نصل لأكثر من هذا الوصف ". انتهى.

العلم إذاً لا يعرف شيئاً عن " كنه " الضوء أو طبيعته، وكل ما توصل إليه هو معرفة " خصائص " الضوء فقط، ولذلك نتساءل: إلى أي مدى يتصل الرجل العالم بالحقيقة في ذاتها؟ إن الرجل العالم يكون قد وصل إلى " قمة الإدراك " عندما يعرف كل شيء عن أفعال وأوصاف الكهرباء أو الضوء أي التصرفات والخصائص، وهو يكون في ذلك في مرتبة " العجز عن إدراك " كنه أو ذات حقيقة الكهرباء والضوء، وهو نفس ما ذكرناه عن " ذات الله " التي

(١) في كتابه " النظرة العلمية ".

يعجز كل من سواها عن إدراك كنه أو ماهية حقيقتها، الأمر الذي سبق وقلنا أن الصوفية عبروا عنه بقولهم المشهور " العجز عن الإدراك هو قمة الإدراك "، وما نقوله عن الكهربية أو الضوء هو " مَثَل " لما نقوله عن ذات الله والأسماء والصفات الحسنى.

وقد تناول القرآن هذا " المَثَل " في الآية ٣٥ من سورة النور:

{اللهُ نُورُ السماوات وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

فالكهربية المغناطيسية هي في فهمنا - والله اعلم - " الشجرة المباركة الزيتونة "**{لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ}** بمعنى أنها شمالية جنوبية - المجال المغناطيسي المتصل بالمجال الكهربي - والتي توقد منها الزجاجة " أي المخ أو القلب " وهي كأنها كوكب لأن المخ لا يضيء بذاته، والتي يضيء زيتها من نور رباني المصدر لا نعلم عن حقيقة طبيعته شيئاً، وبما ينتج عنه نور المصباح " أي العقل " وهو سر النفخة الروحية الربانية**{وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي}** والذي يعتبر بدوره " مَثَلاً " لنور الله، نور السماوات والأرض أي الكون كله**{نُّورٌ عَلَى نُورٍ}** والذي نشاهد قدراته ولكننا لا نعلم عن حقيقة ذاته شيئاً[١]، ومن هنا يمكننا أن ندرك المعنى الذي قصده النبي الخاتم محمد ﷺ عندما أمرنا بالتفكير في آلاء الله لا في ذات الله.

عندما قرر القرآن حقيقة أن الله نور السماوات والأرض، ونحن يستحيل علينا أن ندرك ذاته، فإنه يسر علينا أمر الفهم بذكره " مثل "

(١) تناولنا هذا الموضوع بتفصيل أكثر في كتابنا " الإسراء والمعراج وعلوم العصر "، الناشر / دار الكتاب المصري اللبناني.

هذا النور ممثلاً في المشكاة والمصباح والزجاجة، مشيراً بذلك - في فهمنا والله أعلم - إلى الوعي العقلي " المخ + الحواس في حدود الجسد " وإلى الوعي الروحي " الإدراك الزائد عن الحواس " [١] النابع من القلب، حيث:

المشكاة = الجمجمة أو الغلاف الحافظ للمخ في الجدار الجسدي الإنساني

الزجاجة = المخ كالزجاجة الهشة.

المصباح = الوعي العقلي والوعي الروحي.

وقد اعتبر القرآن الزجاجة كأنها**{كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ}** بمعنى أنها لا تضيء بطاقة ذاتية وإنما تضيء من " زيت " من مصدر آخر هو الكهرباء المعجزة الربانية التي لا يحيط بها المكان فالنور في العقل والقلب يرى آيات النور في السماوات والأرض، بالضبط كالكواكب التي تستمد إضاءتها من النجوم النارية،**{يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ}** وقد ذكرنا من قبل أننا نميل إلى اعتبار الشجرة المباركة الزيتونية أنها المعجزة الكهربية المغناطيسية لأننا نعرف أن الخلايا العصبية في المخ - النيورونات - تعمل بواسطة الشحنات الكهربائية، والشجرة مباركة لأن الله هو الذي أنبتها أي خلقها، وهي زيتونة إما لأنها أساس التوازن الكهربي في الذرة الذي يحقق " سلام البنية الكونية كلها بتماسك الذرة بقوة الربط " باعتبار الذرة هي أساس البنيان الكوني كله، وإما لأنها بيضاوية أو دائرية التي تفسر معنى " العروج " وهو السير بمنحنى ليكون الكون متناهي ولكن غير محدود كما أثبت أينشتاين. وزيت الإضاءة رباني المصدر، والإضاءة ذاتها تتم بكيفية لا نعلم حقيقتها وإنما نشهد ونعلم تحققها

---

(1) Extra Sensory Perception.

من خلال آثارها فقط، وصدق الله العظيم**{وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ}** [العنكبوت: ٤٣].

وقد ذهب المفسرون في هذه الآية إلى أن المشكاة هي الكوة غير النافذة في الجدار، التي يوضع فيها السراج. [١] وقيل هي القنديل الذي يوضع فيه السراج والمادة الدهنية التي ينغمس فيها الفتيل، وقيل أنها كلمة معربة. والمصباح قيل: أنه السراج وقيل أنه الفتيلة المضيئة، ودري نسبة إلى الدر وهو اللؤلؤ يقصد تشبيه اللون والصفاء واللمعان. والآية - كما يقول المفسرون - تقرر أن الله سبحانه وتعالى هو منور السماوات والأرض بنوره، وضرب لنا مثلاً لنوره بما يمكن أن يفهمه الناس من مشاهد الدنيا وأمثلتها تقريباً لأذهانهم. وقد أورد الخازن منسوباً إلى كعب الأحبار إلى أن المشكاة هي صدر النبي والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة والشجرة المباركة هي شجرة إبراهيم الحنيف المسلم، لا شرقية ولا غربية أي لا يهودية ولا نصرانية.

أما المفسرون كما جاء في مختصر ابن كثير فذهبوا إلى أنها ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب إنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طوال النهار لتكون ثمرتها انضج وزيتها أصفى[٢].

وبالنسبة للنور الوارد في سورة النور فهو إلى جانب خاصيته في الإضاءة الشديدة والهداية، له خاصية الوعي والإدراك فيما نعرف من الوعي العقلي أو الروحي، ونقصد بالوعي العقلي وعي الإنسان المتصل بالمخ ووقوده من الزيت الذي هو الكهرباء أو الشجرة المباركة الزيتونية في اتصال بالحواس، ونقصد بالوعي

(١) انظر: محمد عزة دروزة " التفسير الحديث ".
(٢) انظر: محمد علي الصابوني " صفوة التفاسير ".

الروحي الوعي المتصل بالمخلوقات الروحية الصرفة كالملائكة والروح، وكذلك أيضاً الوعي الإنساني العقلي الزائد على الحواس " Extra Sensory Perception " والمتصل بالطاقة الروحية لديه وقدراتها وقواها.

إذن الوعي العقلي لدى الإنسان هو نور من النفخة الربانية الروحية ويظهر نشاطه عند الإنسان بتفاعل مختلف أجهزته الجسمية في اتصال بطاقة الكهرباء وفي استمداد من طاقة نورية ربانية لا نعلم عن طبيعتها شيئاً(١).

الله هو " الباقي " والباقي اسم من أسمائه الحسنى سبحانه وتعالى، والأسماء التي تلوح في مرائي المخلوقات المادية والطاقية تعكس في الحقيقة سر سريان الأسماء في الوجود كله بكل مراتبه، ودرجاته، وأنواعه، فالوجود عبارة عن موجودات مخلوقة بسر الكلمة الإلهية " كن فيكون " من خلال فاعليات الأسماء المؤثرة.. فالأسماء هي سر وجود الطاقة الكامنة والحركية في كل المخلوقات في الكون، ومن فعاليتها وتأثيراتها تتولد كافة أشكال وأنواع وصور وألوان القوى الكونية والطاقات التي يمكن اعتبارها مظاهر لظهور تجليات الأسماء الإلهية الموجودة وجوداً لا عدم معه.. والله أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، أي: أنه تبارك وتعالى باق ودائم ولا ينتهي، ولا يفنى، ولا يتغير، ولا يتبدل.. ولا يستحدث، وهو سبحانه وتعالى متحقق بالظهور والبطون في المظاهر والشؤون - ويمكن فهم ذلك

(١) للصوفية تفسير روحاني للآية (الله نُورُ السماوات وَالأَرْضِ...) يشير إلى " الحقيقة المحمدية " وهي نور رسول الله ﷺ الذي يعتبر الأصل النوراني لشجرة النبوة الممتدة الفروع، يمدها من نوره كما يمد قلوب العارفين الراسخين في العلم من ورثة الأنبياء ونور رسول الله ﷺ لا يحده المكان:{**لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ**} وفي ذلك يقول الإمام محمد ماضي أبو العزائم عن رسول الله ﷺ: " زيت الزجاجة المثالية النورانية المنزهة في حيطتها عن الشرقية والغربية... ".

بفهم نوعي الطاقة الكامنة والطليقة.

" الله " هو الاسم العلم الدال على الذات المعبود في الأديان، وهو اسم جامع للأسماء الحسنى كلها، الجمالية والجلالية والكمالية.

والأسماء لها طاقات تظهر في الكون وكل كائناته، المخلوقة والطاقة في الكون والكائنات لها تلون في ماديات كثيرة الأشكال والصور، ولذلك فهي كثيرة في تشكلاتها المختلفة ولكن حقيقتها وجوهرها هو الوحدة، وحدة الطاقة أو وحدة القوى الفوقية[١] والتي تعكس وحدة الأسماء الحسنى الإلهية التي هي مصدر كل القوى والطاقات في الكون وكائناته والذات الإلهي.. متعال عن كل قيد، وتخصيص، وعن كل تصور، أو تخيل بالتقديس، والوحدة مقامات ثلاث: أحدية، وواحدية، ووحدانية.

- **الأحدية**: مقام كان الله ولا شيء غيره، أول بلا ابتداء.
- **الواحدية**: بقاء الوجه بعد فناء كل شيء، آخر بلا انتهاء.
- **الوحدانية**: نفي الشريك وانتفاء الشرك، حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، يدبر الأمر في السماوات والأرض من الكون.

* * *

(١) القوى الفوقية: هي القوى التي يقوم عليها البنيان الكوني الطبيعي، وهي الكهرومغناطيسية والجاذبية، والقوى الضعيفة الذرية، والقوى الشديدة الذرية.

الفصل الثاني

فقه شهادة
أن لا إلـه إلا اللـه

الفصل الثاني
فقه شهادة أن لا إله إلا الله

قبل التعمق في فحوى هذا الحديث أوجه نظر إخوتي المؤمنين إلى ضرورة الالتزام بفقه شهادة أن لا إله إلا الله، وما يليق في حق الله، وما لا يليق، وهو ما ننقله عن شيخنا وأستاذنا الإمام أبي العزائم[١] حتى لا تزيغ أبصار، ولا تضل أفكار، وهذا الفقه للشهادة هو كهف الشريعة تأوي إليه النفوس الطاهرة، والقلوب المبصرة، والعقول الحائرة، يقول الإمام: " هي ما أجمع عليها أئمة الهدي من السلف الصالح من أهل العلم بالله تعالى، والخشية من جنابه سبحانه وتعالى، وهي أول فرض فرض على المؤمنين، لأن أول واجب أجمع عليه السلف الصالح هو شهادة التوحيد، ووصف فضائلها، وهي شهادة المقربين، وشهادة الرسول ﷺ.

قال تعالى لرسول ﷺ:**{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ}** [محمد: ١٩]، وقال لعباده المؤمنين يأمرهم بمثل ذلك**{فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** [هود: ١٤]، ففرض التوحيد هو اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد، لا من عدد، وأول لا ثاني له، موجود لا شك فيه، وحاضر لا يغيب، وعالم لا يجهل، قادر لا يعجز، حي لا يموت، قيوم لا يغفل، حليم لا يسفه، سميع بصير، ملك لا يزول ملكه، قديم بغير وقت، آخر بغير حد، كائن لم يزل ولا تزال الكينونة صفته، لم يحدثها لنفسه، دائم أبد الأبد، لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه غير محدثها لنفسه، لا بداية لكينونته، ولا أولية لقدمه، ولا غاية لأبديته، آخر في أوليته، أول في آخريته، وأن أسماءه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه، وإنه أمام كل شيء، ووراء كل شيء وفوق كل

---
(١) هو المغفور له الإمام محمد ماضي أبو العزائم، رائد ومجدد التصوف الإسلامي في القرن العشرين ومؤسس الطريقة العزمية الصوفية.

شيء، وأقرب إلى كل شيء من ذات الشيء، وأنه مع ذلك ليس محلاً للأشياء، وأن الأشياء ليست محلاً له، وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، الجو وجه، والفضاء من ورائه، والهواء وجه، والمكان من ورائه، والحول وجه، والبعد من ورائه، وهذه كلها حجب مخلوقات من وراء الأرضين والسموات متصلات بالأجرام اللطاف ومنفصلات عن الأجسام الكثاف - من الكثافة - وهي أماكن لما شاء، داخله في قوله ﷺ (ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد)، والله جل جلاله وعظم شأنه هو ذات منفرد بنفسه، متوحد بأوصافه، لا يمتزج، ولا يزدوج إلى شيء، بائن من جميع خلقه، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه من ذاته شيء، ليس في الخلق إلا الخلق، وليس في الذات إلا الخالق.

وأنه تعالى ذو أسماء، وصفات، وقدرة، وكلام، ومشيئة وأنوار كلها غير مخلوقة ولا محدثة، بل لم يزل قائماً موجوداً بجميع أسمائه وصفاته وكلامه، وأنواره، وإرادته، وأنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له الخلق، والأمر، والسلطان، يحكم بأمره في خلقه وملكه ما شاء كيف شاء، لا معقب لحكمه، ولا مشيئة لعبد دون مشيئته، إن شاء شيئاً كان، ولا يكون إلا ما شاء، لا حول لعبد عن معصية إلا برحمته، ولا قوة لعبد على طاعته إلا بمحبته، وهو واحد في جميع ذلك لا شريك له ولا معين في شيء من ذلك، ولا يلزمه إثبات الوعيد، بل المشيئة إليه في العفو، ولا يجري عليه في الأحكام ما أجرى علينا، ولا يختبر بأفعال ولا يشار بالمقال، حكيم عادل بحكمة وعدل هما صفتاه، لا تشبه حكمته بحكمة خلقه، ولا يقاس عدله بعدل عباده، ولا يلزمه من الأحكام ما ألزمهم، ولا يعود عليه

من الأسماء المذمومة كما يعود عليهم، قد جاوز العقول، وفات الأفهام، والأوهام، والعقول.

هو كما وصف نفسه، وفوق ما وصفه خلقه، نصفه بما ثبتت به الرواية وصحت عن رسول الله ﷺ، وأنه ليس كمثله شيء في كل شيء بإثبات الأسماء والصفات، ونفي التمثيل والأدوات، وأنه سبحانه وتعالى لم يزل موجوداً بصفاته كلها ولم تزل له، وأن صفاته قائمة به لم تزل كذلك، ولا يزال بلا نهاية، ولا غاية، ولا تكييف، ولا تشبيه، ولا تثنية، بل بتوحيد هو متوحد به، وتفريد هو منفرد به، لا يجري عليه القياس، ولا يمثل بالناس، ولا يُنعت بجنس، ولا يلمس بحس، ولا يتحد بشيء، ولا يزدوج إلى شيء، وأن ما سوى أسمائه، وأنواره، وكلامه من الملك والملكوت، محدث كله، ومظهر حدث بعد أن لم يكن، ولم يكن قديماً، ولا أول، بل كان بأوقات محدثة، وأزمان مؤقتة.

والله تعالى هو الأزلي الذي لم يزل، الأبدي لم يحل، القيوم بقيومية هي صفته، الدائم بديمومة هي نعته، أول بلا أول، ولا عن أول، آخر لا إلى آخر بكينونة هي حقيقته، أحد صمد لم يلد، وبمعناها لم يولد، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شيء ولم يتولد منه شيء، ومثل ذلك لم يخلق من ذاته شيء كما لم يخلق ذاته من شيء، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون من ذلك علواً كبيرا.

هذا ما انطوى عليه القلب من علم كلمة " أشهد أن لا إله إلا الله " الذي فرضه الله على المؤمنين، بنص كتابه كما تقدم في الآية، ومتى تحقق القلب باليقين بها باشره حق اليقين، فشهد من مشاهد التوحيد، وبدائع حكمة الحكيم، وعجائب تصريف قدرة القادر، وأنوار غيب الواحد الأحد، ما يعجز عنه البيان، ويقصر عن إدراكه العقل، ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء، ومتى وهب شرح الصدر، وصفي " الخيال ". انتهى.

الفصل الثالث

الذات الإلهية
والأسمـــاء الحسنـــى

الفصل الثالث

الذات الإلهية والأسماء الحسنى

إن التجلي (الظهور) الأسمائي يقترن بالتنزيه الكمالي الواجب لله سبحانه وتعالى، النافي للمثلية عنه سبحانه وتعالى في كل شيء وهي دائرة توحيد الذات للذات التي أشرنا إليها فيما سبق، ويجب أن نعلم أنه لا يلزم تصور صفات الله على غرار صفات البشر، ولا تصورها متصفة بصفات البشر كما ذكر محمد إقبال[١]، إذا أخذنا في اعتبارنا فكرة " التباين " فيما يتعلق بالكمال الإلهي والنقص الإنساني. وربما كان المفيد أن ينظر الإنسان إلى صفاته البشرية باعتبارها مظاهر أو مرائي للأسماء والصفات الإلهية الإيجابية التأثير المنسوبة إلى الذات الإلهي**{لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ}** [البقرة: ٢٥٥]، كما تنسب صفات الإنسان إلى ذاته الواعية، فإذا كان الإنسان ذاتاً واعية ومدركة وهو يتصف بالنقص في صفاته فإن الله تعالى ذات واعية مدركة تتصف " بالكمال " في أسمائها وصفاتها، وهذا ما يقتضيه فارق النقص والكمال بين المخلوق والخالق، وتكون النتيجة أن كل نقص يضاف إلى الأسماء والصفات الإنسانية هو انعكاس لكل كمال يضاف إلى الأسماء والصفات الإلهية في إطار معني**{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}**، أي في كل شيء، ولكن الحقيقة أن هناك فارقاً بين الذات وبين الأسماء فيما يتعلق بإدراك الإنسان، الإنسان - بكل إمكانياته - يعجز عن إدراك الذات، ولكنه يستطيع أن يدرك أسماء - أو صفات - الذات عن طريق مظاهرها أو مرائيها في النفس وفي الطبيعة ونظامها الأمثل.

{فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: ٣ - ٤].

(١) في كتابه " تجديد التفكير الديني في الإسلام ".

ومن هنا فإن أصحاب النظرة المادية يجانبهم الصواب حين يظنون أن العقيدة الدينية هي تقديس لمعبود لا تناله الحواس ولا يدرك صفاته العقل، وتفترض معه جنة خيالية بعيدة عن الواقع، فإن العقل الإنساني يتعامل مع فكرة الألوهية في وضوح وليس في إبهام، وذلك من منطلق حقيقة بسيطة وهي أن الله في الحقيقة **{نُورُ السماوات وَالأَرْضِ}** [النور: ٣٥]، ولولا النور في الكون لتعطلت الحواس الإنسانية، ولساد الكون ظلام يعني الجهل التام بحقائق الوجود والتعطل التام لقدرة الإنسان على تشغيل الحواس، وبالتالي تعطل المعرفة الإنسانية. وبذلك يتضح الفارق بين الكمال الإلهي والنقص البشري، وعند هذه المرتبة يتلقى الإنسان " هدي " الإله ليختط على أساسه نمط سلوكه في حياته الواقعية ومنهاجه الاجتماعي، يستعمل قدراته العقلية لتنمية حصيلة تجاربه في إطار الممارسة الفعلية لتعاليم الدين وتوجيهاته وبما في هذه التجربة الإنسانية من خطأ وصواب واستقامة وانحراف وجهاد ومجاهدة وامتثال وعصيان.. وكلها ظلال الصورة الآدمية في القرآن.

يقرر القرآن الكريم:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [المجادلة: ٧].

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [يونس: ٦١].

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ} [ق: ١٦].

والحقيقة عندي أن المفهوم الذي تبرزه هذه الآيات ليس هو " المكان "، ولكن هو " الوسعة " التي تتصف بها الذات الإلهية في تجاوز للزمان والمكان النسبيين بالنسبة إلى قياس الإنسان**{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ}** [الأنعام: ٨٠].

إن أول ما يشد الانتباه إلى الفكرة الألوهية في القرآن، هو استحواذ هذه الفكرة على الوجود في كل صوره وأشكاله، بحيث تنتفي عن هذا الوجود كله صفة الاستقلال، سواء في الإيجاد الأول أي الخلق، أو استمرار الوجود كله أي الديمومة.

وبذلك أيضاً فإن فكرة الألوهية تستحوذ على الإنسان الفرد - وينعكس أثرها على الجماعة المنظمة - في حواسه المدركة وفي إدراكه الزائد على الحواس، وفي فكره وشعوره ونفسه وسره وخياله وتصوراته بحيث تمتد لأبعاد عميقة جداً في الشعور والسر والخفي وما هو أخفى من دوائر الوعي الباطن، وينعكس ذلك على السلوك الفردي حيث يراقب الفرد نفسه، وعلى السلوك الاجتماعي بدرجاته المختلفة.

من هنا فإن موقف الإنسان الفرد من الإله سيمتد إلى موقف له من الكون بكل كائناته ومن المجتمع بكل أفراده، يمكن معه أن تتبلور وتنطلق إيجابية الإنسان لتبدع وتطور وترقي، كما سيبلغ الإنسان اطمئنانه وأمانه حين يلزم نفسه بنظام الله التشريعي والأخلاقي، ليعيش في سعادة ووفاق مع هذه النفس أولاً، ثم مع سائر الناس في المجتمع، وأخيراً مع الإنسانية جمعاء في العلاقة بين الشعوب والأمم، لأن ذكر الإله يؤدي إلى الأمان والطمأنينة والسلام النفسي الذي ينعكس أثره على الكيان العضوي الإنساني ذاته وعلى العلاقات الإنسانية عامة**{أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}** [الرعد: ٢٨].

إن الإنسان سيمكنه أن يدرك قدرات أو صفات أسماء الإله إذا

بحث في الطاقات والقوى الكونية، وهو سيسجد أي يخضع حتماً لله إن هداه عقله - وعلى قدره - إلى معرفة حقائق حول هذه الطاقات والقوى لأنها هائلة عظيمة، مخيفة أحياناً، فيها من مظاهر الجمال ما يدهش، وفيها من مظاهر الجلال ما يحير، وهي حالات لا يعرفها إلا العلماء المؤمنين بالقرآن أو العلماء الذين يحتمل أن يكون قد فاتهم الإيمان بالقرآن نتيجة عدم دراسته، أو دراسته دراسة سطحية بغير لغته العربية، أو الإهمال له نتيجة النظر إلى واقع المسلمين المتخلف، أو إضمار سوء النية للقرآن ونبي القرآن ودين القرآن.

يقرر القرآن في الآية ٤١ من سورة فاطر{**إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**}، وهو يشير بذلك إلى السنن والقوانين في الطبيعة، وهي التي يثبتها القرآن جنباً إلى جنب مع حقيقة الطاقات والقوى. إن الأمر بذلك هو أمر القوانين الطبيعية التي تتحكم في، أو تحكم، هذه الطاقات والقوى الكونية كلها في نظام، كل شيء يخضع للإمساك الإلهي أي الإمساك بالطاقات التي تعمل في إطار قوانين وسنن محددة كطاقة الربط في الذرة، لولاها لتضاربت المخلوقات كلها في فوضى، ويزول معها النظام، وتختل وتتضارب وتتناقض فيها القوانين وهي الحالة التي يصورها القرآن في تقريره{**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا**} [الأنبياء: ٢٢].

ويمكن لأي عالم أن يتصور النتيجة التي تحدث في الأرض لو سادت الفوضى محل النظام في المجتمع الكوني.. إنها نتيجة رهيبة من التدمير والاختلال والفوضى، إن تحققت فمن ذا الذي يمكنه أن يعيد إلى المجتمع الكوني الهائل نظامه المفقود؟{**وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**} [فاطر: ٤١].

والإنسان يعلم أن الذرة هي التركيب الأولي لمادة الكون كله، أي

السماوات والأرض كما يذكرنا القرآن، فما هو السر وراء إمساك الذرة أو توازنها؟ إن العلم يخبرنا أن النواة الذرية تركيب متماسك تماسكاً شديداً لا يتفكك إلا تحت ظروف طاقة عالية جداً.

ويخبرنا أن هناك ذرات مستقرة وذرات غير مستقرة، كما يخبرنا العلم أن تماسك الجسيمات النووية داخل النواة يرجع أصلاً إلى النقص في كتلتها في الحقيقة عن المجموع الكلي لكتل جسيماتها، وكلما زاد هذا النقص زاد استقرار النواة وتماسك جسيماتها، وتسمى الطاقة المكافئة لهذا النقص بطاقة " الربط "، وقد قاس العلماء كتل أغلب النوى المستقرة وغير المستقرة وحسبوا نقص الكتلة وطاقة الربط في كل منها، وكانت النتيجة التي وصلوا إليها أن متوسط طاقة الربط التي تخص الجسم الواحد في نواة، أي طاقة الربط مقسومة على مجموع البروتونات تتراوح دائماً بين ٦ و٩ مليون إلكترون فولت، والقوى التي تربط الإلكترونات في نواة الذرة هي " قوة جذب الكهربية الساكنة Electrostatic ".

الحقيقة في القرآن والكون:

إن العقل المؤمن سوف يصل إلى مدارك من الحقيقة عن طريق وجهها الكوني فقط، بالضبط كما أنه سيصل إليها عن طريق وجهها القرآني فقط، ومعارج الحقيقة " علوم " وسبيلها " التجريب والتجريد الرياضي " أو " المشاهدة والاستقراء والاستنتاج " أو " الذوق " و " الوجدان "، أو " الإلهام والمكاشفة والوحي "... إلخ.

والعقل عندما يصل إلى الحقيقة في الصورة التي تتطابق فيها أجزاؤها في الكون مع القرآن، فإنه سيكون قد وصل إلى المعاني الحقيقية للإيمان بالله وبالكتاب " القرآن " و " بالرسول الخاتم " " الإنسان "، ويبقى على العقل أن يدرك تطابق الحقيقتين حتى يؤمن بوحدة الحقيقة ذاتها كما جاء بها الكتاب المقروء قرآناً، فيؤمن به

وبآياته، والإيمان ينتج ويزداد بالبحث العقلي الذي يتوصل إلى إدراك تطابق الحقيقة في الكون مع الحقيقة في القرآن، وهي تعني كما ذكرنا " وحدة الحقيقة " ولما كانت الحقيقة في ذاتها واحدة ولها مظهران، كوني وقرآني، فإن إدراك هذين المظهرين المتماثلين تماماً لا يأتي بالدرجة الأولى إلا عن طريق البحث العقلي وترقي هذا البحث في صورة المعرفة الإنسانية بكل مصادرها، بما فيها الشفافية الناتجة عن الرياضة الروحية وما تولده من كشف وإلهام وقدرات خارقة لقوانين الطبيعة، وبما تنقله إلينا من أسرار التوحيد.

ولما كان الكون حديثه هو حالته، ووجوده في الصورة الطبيعية " المادية الطاقية " هو تعبيره، وتسبيحه هو منطوقه غير المعلوم لنا، فإن الإنسان يظل - وهو في دوره العاقل - في حاجة إلى حديث بياني رباني بالأسلوب الذي يناسب ميزته العقلية، وقدراته الروحية، ليدرك بهذا الحديث الحقيقة الكونية في صورة منطوقة ميسرة يمكنه أن يفهمها، من حيث مخاطبتها لعقله وقلبه وروحه، ويكون هذا الحديث مكتملاً في المحتوى المعرفي، اكتمال الكون في المحتوى الخلقي، فيدرك الإنسان به أن الأمر كله هو الحق من عند الله، وعندئذ تثبت الصلة بين الكون وبين مكونه، وبين القرآن وبين منزله، وبين جبريل والرسول ﷺ، وبين الإنسان وبين خالقه سبحانه**{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}** [الحج: ٥٤].

إن علينا أن نفهم كيف يتصرف العالم الطبيعي حتى نفهم كيف يتصرف ربنا سبحانه وتعالى في هذا العالم حتى تتضح لنا آيات الله، خاصة فيما يضربه القرآن من أمثال كي يعقلها الإنسان ويتدبرها ويفهم معناها، ولابد أن ندرك جيداً أن هناك عالمًا روحيًا يسميه القرآن بعالم الأمر الغيبي يختلف تماماً عن هذا العالم الفيزيقي

المتصل بالإنسان، ومعلوماتنا بالنسبة لتصرف ربنا في هذا العالم الروحي ما زالت قليلة، ومن ثم يكون الاعتماد على الوحي الإلهي ضروري لفهم هذا العالم بالقدر المتاح من المعلومات التي ينقلها إلينا هذا الوحي. وليس يمنع ذلك من أن نجتهد بقدر ما يتوفر لنا من وسائل ومعلومات لفهم هذا العالم الروحي - عالم الأمر - فهما أكبر من خلال التعامل مع هذا العالم نظرياً أو اتصالاً واختباراً بالقدر الذي تسمح لنا به طاقاتنا الروحية أو قدرتنا العقلية من خلال علوم مثل الباراسيكولوجي، والإدراك الزائد عن الحواس وما وراء الطبيعة، وبعض التجارب الروحية الحديثة، بالإضافة إلى علم إبطال السحر وعلم تأويل الرؤيا.

إن إدراك الله سبحانه وتعالى للكون هو إدراك كلي بالكليات والجزئيات، وهو غير محدود ومن هذا الإدراك الكلي غير المحدود تكون هبة الإدراك الجزئي المحدود للإنسان، فالله سبحانه وتعالى{**وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً**} [طه: ٩٨]، أما علم الإنسان الجزئي فهو مواهب جزئية محدودة من الكل الشامل المحيط غير المحدود{**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ**} [البقرة: ٢٥٥].

ولما كان البقاء الأولي الأخري، أي البقاء الذي لا بداية له ولا نهاية هو من خصائص الإله وحده لأن الله باقٍ ودائم، فإن كل كائن يتميز بنوع من الإدراك الواعي، والذكاء، لابد أن يكون فانياً، ويكون الفناء من طبيعته التي خلقه الله عليها، وهو المعنى الذي يمكن أن يشمله النص القرآني{**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ**} [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]، والكون دائم التغير في اتساع وامتداد بعد انكماش، وكان مركزاً في كرة من النار، والغازات ذات كثافة عالية كانت هي نواة كل المادة والطاقة في الكون الذي كان لا صورياً في

الأصل وصوري بعد مراحل تطوره في الزمان[١].

كيف نعرف الله؟

ومع هذا النظر العميق في آلاء الله أي آيات الله من خلال عمق الصنعة الكونية وما بث الله فيها من دابة، وما قد يبدو معه الأمر من صعوبة في فهم قدر الإله سبحانه وتعالى، فإن الأمر يعود في حقيقته ليكون بسيطاً أشد البساطة[٢].

ولعلنا يمكن أن نقول: إن أعظم شيء في مفهوم الألوهية القرآني أن الذات غير المدرك يمكن أن يكون واضحاً بشكل بسيط وميسر، أو بعبارة أخرى إن بلوغ " الألوهية " في القرآن في فهمنا لها لدرجات من الصعوبة العلمية الشديدة لا يتنافى مع أن يبدو الله سبحانه وتعالى في نهاية الأمر في مفهوم بسيط وواضح أشد الوضوح، وهذا هو المعنى الذي يظهر في إيمان البسطاء من الناس، أولئك الذين قال أحدهم: " إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا تدل على العليم الخبير "، أو كالمرأة التي سئلت عن ربها فنظرت إلى السماء وقالت: هو في السماء، مستهدفة المعنى نفسه الذي قاله الإعرابي السابق.

إن البساطة الكائنة في فهم الأسماء الحسنى وصفات الإله المعبود في المفهوم القرآني تنأى بالناس عن تعقيدات وألغاز وطلاسم معتقدات التثليث في التلقين الكنسي اللاهوتي، وقد آمن بالحاجة إلى

(١) هذا ما تقرره نظرية " الدوي الكبير Big Bang " الأكثر تمشياً مع المفاهيم القرآنية، وقد أشرنا إلى تفاصيلها في غير هذا الموضع.

(٢) ونفس الشيء بالنسبة للكون وتفسيره الفيزيائي، فرغم أن الكون يبدو في طاقاته وأساليب تكوين وتصرف هذه الطاقات شديد الصعوبة في فهم تركيبه وطريقة عمل وتكوين طاقاته، فإن أعظم شيء في هذا الكون ذاته هو إمكانية فهمه في النهاية في صورة مبسطة واضحة أشد الوضوح، وبذلك قال أينشتاين.

البساطة في فهم الإنسان لصفات الله " توماس جيفرسون " ثالث رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، وقد كان من أتباع كنيسة الموحدين بالله (Unitarians) وبأن المسيح عبده ورسوله وصاحب قيم أخلاقية عليا.

القرآن يخبرنا على سبيل المثال بأن الله يقترب من الإنسان بقدر اقتراب الإنسان من الله، كما أن الله يوجه الإنسان في سلوكه بقدر ما يتوجه الإنسان إليه. وهو الذي يستشعره الإنسان في كل نفس من أنفاسه خلال تجربته في الحياة التي يلتقي فيها في كل تجربة مع الله بأسمائه الحسنى التي تحيط بالكون كله بما فيه الإنسان من خلال الحب والرحمة والتسامح الإلهي مع الخلق المفتقرين دائماً إلى هذه النعم التي تميز العطاء الإلهي للإنسان. كل واحد حسب استعداده ومستواه من الحب لله والقرب منه، والاستمداد منه والتسليم والإسلام له والتنزيه لمقامه الكمالي.. والإله يعلن عن نفسه بأنه قريب من كل إنسان قرباً هو أقرب من أقرب أعضاء الإنسان للإنسان{**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**} [ق: ١٦]. قرباً يشمل كل إنسان فرد في سره وعلنه.. في فكره وسلوكه.. منفرداً كان أم في جماعة الله قريب من الفرد ومن الأسرة ومن المجتمع ومن الشعب ومن الأمة ومن العالم بكل من فيه وما فيه من مخلوقات.. ومن الكون كله بكل ما فيه ومَنْ فيه من مخلوقات ولذلك لا يحتاج الإنسان إلى وساطة كهنوتية تمنح الخلاص والغفران وتحتكر القداسة والعصمة، وإنما قد يحتاج إلى ولي مرشد أو خبير بالرحمن يتميز بالمعرفة والاستقامة والإرشاد والتوجيه، للتعامل مع الله والتقرب إليه والاقتراب منه من خلال علاقة بين الفرد وربه تقوم على الإسلام والإيمان والإحسان والمحبة والإخلاص والطاعة وسائر مقامات اليقين، وتستند إلى فهم لصفات الله الواحد الأحد أو أسمائه الحسنى والاستشعار العقلي والروحي

لوجوده وإحاطته وإحاطة علمه، وسمعه، وبصره وحياته وقربه وعدم غفلته لحظة زمان، وديمومته، وقيوميته إلى سائر أسماء وصفات الله سبحانه وتعالى علواً كبيراً عما يصفون.

وقد أمرنا النبي ﷺ: بالتفكير في آلاء الله لا في ذات الله لأننا لا يمكن أن نقدره حق قدره، وهو ما يعكس معنى النص القرآني:

{وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧].

فذات الله سبحانه وتعالى من الغيب الذي لا يمكن إدراكه بالحواس **{لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ}** [الأنعام: ١٠٣]، ومن هنا يعجز العقل عن إدراك كنهه، ولذلك يسلم العلماء اليوم - أو كثير منهم - بأن قدرة الإنسان على الملاحظة لا تستطيع أن تمتد لغير جزء ضئيل نسبياً من الحقيقة الكلية، وكما ذكرنا من قبل يقول روبرت موريس بيج[١]: " إن الإله الذي يسلم الإنسان بوجوده لا ينتمي إلى عالم الماديات ولا تستطيع حواسنا المحدودة أن تدركه باستخدام العلوم الطبيعية لأنه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة الضيقة ". انتهى.

ولكن للذات أسماء كلها حسنى، وهذه الأسماء تتجلى (تظهر) في المخلوقات كلها المعروف منها لنا وغير المعروف، المنظور منها وغير المنظور، ومن هنا تكون معرفتنا بالإله الذي نعبده، فهذا الإله في ذاته المجهولة لنا يمكن التطلع إليه باعتبار أن له أسماء أو صفات معلومة يكون إدراكنا لها من خلال آثارها الناتجة عنها. هذه الآثار هي كل ما يدخل في دائرة المخلوق: المادة والطاقة والنبات والحيوان والطيور والحشرات والزواحف وغيرهم، والإنسان والملائكة

(١) مكتشف الرادار عام ١٩٣٤ Robert Morris Page.

والروح والجن وما قد يكون في الكون من عوالم ذكية لا نعلمها، هذه الآثار كلها - أي المخلوقات - تدخل في إطارها القوانين السارية في الكون أو السنن كما يسميها القرآن، وبقدر الإحاطة أو الإحصاء لما هو مخلوق تكون الإحاطة أو الإحصاء لأسماء الله الحسنى. ولما كان العلم لا يمكنه أن يصل إلى درجة الإحاطة النهائية بكل ما هو مخلوق فإنه لا يمكن بالتالي الإحاطة بالأسماء كلها فضلاً عن ذات الله وهو المعنى الذي يقول فيه القرآن{**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**} [طه: ١١٠]، كما أن التجلي (الظهور) الاسمائي يعتبر غيبًا من الغيوب وسرًّا من أسرار التنزل الإلهي الذي لا ندرك (كيفيته) وإنما نرى ونشاهد ونعلم مظاهره في الكون وكائناته وكل مخلوقاته من خلال " طاقة " الأسماء الحسنى، الكامنة فيها باعتبارها القديم، والطليقة باعتبار أفعالها وتأثيراتها في كل ما خلقه الله تعالى؛ فالأمر في السر والعلن أمر طاقة تعلوها طاقة، أي روح تعلوها روح، أي نور يعلوه نور (نور على نور).

ولما كانت هناك موجودات مخلوقة في العالم الفيزيقي ما زالت لا ترى حتى بأدق وسائل الرؤية، ومثالها كما ذكرنا في غير هذا الموضع Quarks داخل البروتون والنيوترون في نواة الذرة، وهي الموجودات التي أمكن لعلماء الفيزياء اكتشافها - مع إمكان أن تكون هناك أنواع من الحبيبات الأخرى أكثر صغراً لم يكتشفها العلماء بعد ولا يمكن أن تكون محل ملاحظة في المعمل - نقول لما كان ذلك كله فإنه يكون من البديهي أن نؤمن بصحة ما يقرره القرآن عن استحالة إدراك الله سبحانه وتعالى بالبصر{**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**} [الأنعام: ١٠٣].

* * *

الفصل الرابع

توحيد الربوبية
وتوحيد الإلوهيــة

الفصل الرابع

توحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية

" حينما نمعن الفكر في هذا الكون نلاحظ وحدة نظامه من أبعد كوكب فيه عنا إلى أصغر ذرة من ذراته، ونلاحظ تسييره المحكم البديع دون خلل أو اضطراب، أو فساد في أرضه وسمائه، في حركة نجومه وكواكبه، في وحدة نظام مجراته، في كل ساكن أو متحرك، في كل جماد أو ذي حياة، في ترابط بعضه ببعضه ترابطاً تاماً، مع أن كل جزء فيه يعمل في نطاقه ومجاله، دون أن يكون عمله هذا سبباً في فساد عمل أي جزء آخر من الأجزاء التي لا حصر لها في هذا الكون الكبير، فدراسة ظواهر الكون دلت على أن هذا الكون خاضع لقوانين واحدة، وأنه سائر ضمن خطط من الخلق لا تفاوت فيها، إن القوانين السائدة في الأرض هي القوانين السائدة في السماء، ثم إن الأرض وما فيها جزء مرتبط بسائر ما في الكون، فهي خاضعة لنظام شامل، مسيطر على الكون كله.

وهذا يدل على أن الخالق المهيمن على الكون كله واحد ولو أنه كان متعدداً لتباينت قوانين الكون ولتعارضت، ولا انتهى الأمر بها إلى التصادم والفساد ".[١]

لقد تحدث أستاذنا الإمام محمد ماضي أبو العزائم عن مقامات ثلاثة في وحدة الإلوهية أو توحيد الإلوهية هي:

- **الأحدية**: بمعنى كان الله أزلاً أول بلا بداية وحده لا شيء غير معه.
- **الواحدية**: الباقي الدائم الآخر الذي ليس بعده شيء أو غير.
- **وبينهما الوحدانية**: بمعنى نفي الشريك وانتفاء الشريك، فالله

(١) انظر: كتاب " العقيدة الإسلامية وأسسها " للأستاذ / عبد الرحمن الميداني.

سبحانه واحد لا شريك له في الملك أو الخلق أو الأمر أو التدبير وهو رب العالمين والمستحق وحده للعبادة.

فإذا تحدثنا عن توحيد الربوبية فإننا نقصد به أن الله سبحانه وتعالى باعتباره رب العالمين هو المهيمن على الكون كله والمنظم له والموجه لكل جزء فيه واحد لا يشرك في أمره شريك وهذا كله داخل في مقام الوحدانية الذي تنتفي معه كل أنواع الشرك الظاهر والخفي والأخفى في إطار توحيد الإلوهية بمقاماته الثلاث الأحدية والواحدية والوحدانية. وعلى ذلك فإن توحيد الإلوهية هو توحيد جامع مانع يشمل توحيد الأسماء الحسنى ويعني توحيد الربوبية بحيث تنتفي كافة مظاهر الشرك البشري وغير البشري بربوبية الله تعالى ويتحقق كل مخلوق بتوحيد الله تعالى وانفراده وحده بربوبية العالمين؛ لأن الرب اسمٌ لله من الأسماء الحسنى كالرحمن والرحيم وكلهم يشملهم توحيد الإلوهية باعتبار أن الاسم الأعظم (الله) جامع للأسماء الحسنى كلها ودال على الذات الإلهية الأحدية.

{قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

لقد جاء الإسلام ليصحح العقائد المنحرفة عن التوحيد الخالص وليضع حداً للتصورات والأقوال غير العلمية عن الله سبحانه وتعالى، وأول ما أرساه هو توحيد الله في الاعتقاد وفي العبادة وفي التشريع والمعاملات وفي الأخلاق. وكانت عقيدة البشر في الإله قد مرت عبر مراحل كثيرة في تاريخ الإنسان مُتسمة في مجملها بالسحر والخرافة والأساطير والتعددية والخيال كما نعرف من تاريخ الاعتقاد البشري للمجتمعات المختلفة فيما يتصل بإلهها المعبود، ثم جاء القرآن ليقرر أن الله المعبود الحق إله واحد لا شريك له، لم يلد

ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ووضع أساساً جديداً مبني على المعرفة والعلوم، يجرد فيه الإله من صفات التجسيد أو الاتحاد أو الحلول أو التشبيه أو الخيال أو الشرك أو التحيز أو مماثلة الأحداث والمحدثات أو الوحدة في الوجود. وقرب مفهوم الإله إلى الفكر الإنساني مع تنزيه ذاته، بما أضفى عليه من أسماء حسنى حتى يكون مفهوم الله محيطاً بالإنسان في فكره وفي نفسه وشعوره وفي عقله وقلبه وروحه، وفي سلوكه الفردي والاجتماعي، إحاطة تجعل من الله رقيباً على معتقدات وأعمال كل كائن مخلوق وكل فرد من الإنسانية أين كان وكيف كان في هذا الكون الفسيح الممتد.

وربط القرآن بين عقل الإنسان وروحه وبين الكون المحيط به من خارجه والكون الممتد بداخله، أي في النفس وفي الآفاق، ليلحظ ويتأمل ويعقل ويفكر ويتدبر ويتذكر ويفقه ويعلم ويشهد آيات الله المعجزة في الكونين، بما يزيد من ارتباطه بالله ويقوي إيمانه به وخوفه منه ورجاءه فيه وحبه له، متحققاً بالأمل في رحمته بما يحقق الاستقامة البشرية في السلوك من خلال مراقبة الله الذي يعلم السر والعلن، والذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والذي لا يضل ولا ينسى، والذي يكون حاضراً شاهداً مطلعاً على أمور الإنسان - منفرداً أو في الأسرة أو في الجماعة أو في الوطن، أو من خلال صلاته بسائر الشعوب والأمم والأقوام.

* * *

الفصل الخامس

الألوهيــة والكــون

الفصل الخامس
الألوهية والكون

الصلة بين الألوهية والكون:

الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون وكل المخلوقات فيه سواء تلك التي نعلم أو التي لا نعلم، وذلك بالأمر المعبر عن الإرادة في " كن فيكون "، وقد وضع الله - سبحانه - قوانين وسنن حركة هذا الكون بقواه وطاقاته ووضع لهما قوانينهما، والله وحده القادر على أن يسلب المادة والطاقة خواصهما وإبطال مفعول قوانينهما، وهو ما علمنا القرآن إياه في تجربة سيدنا إبراهيم عندما ألقى في النار ولم يحترق**{قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ}** [الأنبياء: ٦٩]، مع ملاحظة أن السلام الذي ذكرته الآية ضروري مع البرودة لأن ضرر البرودة مثل ضرر الحرارة، وبذلك يتحقق ما نسميها المعجزة، والتي هي عبارة عن خرق القوانين الطبيعية إما بقدرة من الله تعالى الذي سن هذه القوانين بدءاً دون أي تدخل خارجي " إبراهيم والنار " وإما بقدرة الله ولكن عن طريق وساطة الرسل والأنبياء " عيسى عليه السلام "، و " محمد خاتم النبيين ".

والذات الإلهية لا يمكن تشبيهها أو تحديدها بأي شيء لأن الله سبحانه وتعالى**{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}** [الشورى: ١١]؛ وبالتالي لابد أن نعي ضرورة تنزيه الإله سبحانه وتعالى عن الشبيه والمثل والند والوالد والولد والصورة والحلول ووحدة الوجود والتحيز والتشخص والتجسيم والمكان والزمان.. إلخ. كما أن الذات الإلهية لا يمكن تحديدها لا بالمادة ولا بالطاقة الطبيعية ولا بالروحية لأن الروح في المفهوم القرآن يمكن أن تتجسد كما تجسد جبريل لمريم وللنبي ﷺ.. أما الطاقة فإنها في أعلى مصادرها المعروفة يمكن أن تتحول إلى مادة، أو أنها الوجه الآخر للمادة (الطاقة =

الكتلة × مربع سرعة الضوء)، وكل هذه الأمور محالة على الله تعالى.

لقد علمنا مما سبق من معاني الاسم القدوس أنه يعني المنزه عن كل وصف يدركه الحس أو يتصوره الخيال أو يسبق إليه الوهم أو يختلج به ضمير أو يفضي به تفكير، ومن هنا فإن قدرات علومنا المادية أبعد ما تكون عن أن تصل إلى معرفة كنه الألوهية بقدراتها اللانهائية والتي لا تحدها حدود ولا قيود بل هي قدرة فوق كل حساب وتصور وتقدير بشري حيث الله سبحانه وتعالى لا يحيط به أي شيء علماً**{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً}** [طه: ١١٠]. وهو على كل شيء قدير وعلمه وسع كل شيء وأحاط بكل شيء.

الطاقة والأسماء الحسنى:

الطاقة هي القدرة، والقدرة من صفات الله سبحانه وتعالى الذي هو القادر والقدير، ومن هنا، أي من تساوى معنى القدرة والطاقة فإن أسماء الله الحسنى جميعاً ذات قدرة في مجالاتها المعنية التي لها فيها تأثير وفقاً لمقتضى الاسم، فالكريم مثلاً ذو قدرة وذو طاقة على الكرم. والرحيم ذو قدرة أو طاقة على الرحمة.. وهكذا سائر الأسماء.. ولما كان الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، فإن معنى ذلك أنه ذو قدرة وطاقة لا نهائية لا تحدها حدود ولا تقترن بها قيود ولا تداخلها تخصيصات ولا تحكمها أبعاد، ولفظ الجلالة " الله " هو التعبير العربي العلم الدال على الذات الإلهية بحيث يكون سبحانه وتعالى ذاتاً " له أسماء وصفات " كلها حسنى وهي تظهر بذلك ظهوراً يمكن معه تحصيل قدر من الفهم لمعانيها المواجهة للمظاهر المادية والطاقية والقوى في الكون، مواجهة يتحقق بها الظهور والبطون، وتتحقق بها الأولية والآخرية لله سبحانه وتعالى بما نفهمه

من معاني{**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**} [البقرة: ١١٥] من الإحاطة، كما تكون هذه الأسماء بتأثيراتها وفاعلياتها هي الوجود الحق الذي يستمد منه كل موجود وجوده، بحيث لا يكون الوجود المغاير للأسماء الحسنى دليلا عليها، وإنما يكون مدلولاً من مدلولاتها كما نفهم من التقرير القرآني{**أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً**} [الفرقان: ٤٥]؛ فالظل غير المرئي موجود فعلاً قبل أن تدل عليه الشمس وتظهره، وكذلك الأسماء الحسنى ومظاهرها المخلوقة.

ولما كانت الطاقة هي القدرة وفي معناها القدرة على الخلق والإيجاد بالكلمة الدالة على الفعل بكن فيكون، فإن العمل الكوني المعجز العظيم الناتج عن أمر الله سبحانه وتعالى بالخلق والإيجاد وبما يشتمل عليه من قوى وطاقات ومواد وكائنات واعية وذكية وأحياء هو مظهر من مظاهر أسماء الجمال والجلال والكمال، وكل شيء مخلوق فهو مصنوع بإتقان ووجوده كائن بتأثير وفاعلية اسم أو أكثر من هذه الأسماء الحسنى{**صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**} [النمل: ٨٨]، وتكون معاني هذه الأسماء معلومة للإنسان بقدر إحاطته بالمعرفة والعلم بدقائق وتفصيلات وطبائع وخصائص وسلوك وأنواع هذه المخلوقات في الكون.

إن آيات الله الدالة على أحديته وقدرته وعظمته، موجودة في الكون الفسيح الممتد بعوالمه المنظورة وغير المنظورة في الطبيعة، وعوالمه غير المنظورة في عالم الأمر الروحي الذي هو من غيبيات الكون، كما أن آيات الله موجودة في الكون الفسيح والعميق في الإنسان نفسه بتركيبه الجسدي ووظائف أعضائه وما يتصل بقدراته العقلية " الوعي - الذكاء " من وقود كهربي " الشجرة المباركة

الزيتونية اللاشرقية واللاغربية "[1]، وبذلك يمكن للإنسان أن يرى آيات الله في الكون الخارجي والكون الداخلي " نفس الإنسان "، كما يمكنه أيضاً أن يفهم عمليات نشاطات وطاقات الأسماء الحسنى الإلهية من خلال مرائيها في الكون أي المظاهر المخلوقة، ويدرك معنى كون الله سبحانه وتعالى هو الظاهر والباطن، لأن المادة هي الظاهرة والطاقة هي الباطنة، والروح الذي نفخه الله في الإنسان بعد تسويته هو الطاقة التي تحرك الإنسان وتظهر نشاطاته وقدراته الجسدية والعقلية والقلبية وأسرارها غير مدركة لنا لأنها من أمر ربنا ونحن ما أوتينا من العلم إلا قليلاً، والله أعلى وأعلم.

ولما كانت قدرة الله تبارك وتعالى غير متناهية، ومستمرة دون توقف، فإن المخلوقات كلها تكون مستمرة في التواجد الجديد دون توقف لأن قدرة الله سبحانه وتعالى مستمرة في الخلق بكل صوره وأشكاله وخصائصه**{قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً}** [الكهف: ١٠٩].

كل شيء في الوجود يعتريه التغير أو التحول أو التجديد، ويتصف بالحركة النسبية إلا خالق الوجود سبحانه وتعالى فهو الواحد الذي لا يتغير، وحتى النجوم التي هي مصدر طاقة عظيمة تتجدد طاقاتها وتتولد فيها الطاقة فهي تتغير بهذا المفهوم، فآيات الله الدالة على أحديته وقدرته وعظمته موجودة كما قلنا في الكون الفسيح الممتد بعوالمه المنظورة وغير المنظورة في الطبيعة، وعوالمه غير المنظورة في عالم الأمر الروحي الذي هو من الغيبيات الكونية، كما أن آيات الله موجودة في الكون الفسيح والعميق في الإنسان نفسه بتركيبه الجسدي ووظائف أعضائه وما يتصل بهذا التركيب الجسدي ووظائف أعضائه من وقود كهربي للوعي الإنساني " العقل - القلب

---

(١) أي الشمالية الجنوبية في الكهرومغناطيسية.

الفؤاد - اللب " في فترة الحياة الدنيا قبل الموت، وبذلك يمكن للإنسان أن يرى " آيات الله " في الكون الخارجي والكون الداخلي في نفسه ويرى ويفهم عمليات طاقات أو نشاطات الأسماء الحسنى الإلهية وهديها**{قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [طه: ٥٠].

مقتضى الأسماء الحسنى:

إن وجود الكون بكل كائناته ليس لعباً، أو لهواً، أو مصادفة، ولكنه وجود بالحق لأنه مقتضى وجود الأسماء الإلهية، وتجلياتها، وفاعلياتها، وكما أن حضرة الأسماء الإلهية هي غير حضرة الذات فإن المقتضى الضروري اللازم للأسماء والصفات الإيجابية وغير المعطلة هو تجليها بفاعلياتها وتأثيراتها إظهاراً للغير حتى يعرف الغير مقام الإله تبارك وتعالى، ويعرف عن أسمائه وصفاته، وأفعاله كلها فيما ظهرت به فاعلياتها في الكون، وكائناته بكل أشكالها، وصورها، وهيئاتها بما في ذلك عالم الملائكة والروح، والهدف هو عبادة الله وتوحيده.

ولما كانت الأسماء الحسنى تحوي قدرات أي طاقات وقوى، فإنها قد أطلقت قواها وطاقاتها أي " قدراتها على الخلق، والصنع والفعل والعمل " في بدء الخلق عندما كان الله ولا شيء غيره - غالباً - بواسطة انفجار هائل نتيجة للتجلي الأسمائي، وهو الذي نفسر به ظاهرة تمدد واتساع الكون، وانطلاق ما فيه من كتل، وأجسام بسرعات مذهلة**{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}** [الذاريات: ٤٧]، وتكون القوى والطاقات الكونية أو في الطبيعة أثراً من آثار قوى وطاقات الأسماء الحسنى التي يجمعها الاسم الجامع الأعظم " الله " العلم الدال على الذات الإلهي الواحد المعبود في الأديان منذ البداية ليس كمثله شيء، وليس له كفواً أحد.

والذات الإلهي لم يتولد عن شيء، كما أنه لا يتولد من ذاته شيء، لكن الخلق يكون من تجليات الأسماء، والصفات، وهو مقتضاها، والأسماء لها تعلق بالذات، وهي قديمة، فالله رحمن بذاته، ورحيم بذاته، وعليم بذاته.. وهكذا.

ولها أيضاً تجليات في مظاهر المخلوقات والموجودات، فكل ما يظهر أو يكون من قوى وطاقات هو من تجليات الأسماء والصفات، أو فاعلية وتأثير الأسماء والصفات فيما يتعلق بإيجاد المخلوقات، والتأثير فيها والقيومية عليها، والإمساك لها والهدي فيها.

والتجلي يكون أيضاً بمعنى الانكشاف، والظهور في الوجود كتجلي النهار، وبذلك يكون سر ظهور الوجود هو تجلي الموجود - سبحانه وتعالى - في آيات الوجود الدالة على بديع مصنوعاته، وكمال مخلوقاته، وإعجاز آياته، وعظمة قدره، وتفرد أحديته، وتنزيه ذاته، وفي هذا المعنى**{فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً}** [الأعراف: ١٤٣] والتجلي لا يعني رؤية ذات الظاهر، وإنما يعني شهود الظهور في مظهر كائن مخلوق من مظاهر تجلي الاسم أو الصفة.

فما من مخلوق من مخلوقات الوجود إلا وقد اختص بظهور اسم أو أكثر من أسماء الله الحسنى حسب خواصها، ومن هنا فإن العبد المحسن، أي الذي بلغ مقام الإحسان في الدين، لا يرى أثراً إلا ويرى معه أو عنده أو فيه، تجلي المؤثر سبحانه، فإذا رأى **نباتاً** تجلى له نور

" **المقيت** "، وإذا رأى " **دواء** " تجلى له نور " **الشافي** "، وإذا رأى " **ميتًا** " تجلى له نور " **المميت** "، وإذا رأى " **مؤمنًا** " تجلى له نور " **الهادي**، وإذا نظر إلى **السماء** تجلى له نور " **الرافع** " و " **العلي** " و " **القدير** "، وإذا نظر إلى **الأرض** تجلى له نور " **الباسط** "، وإذا

نظر إلى **الماء** تجلى له نور " **المحيي** "، وإذا استشعر **الهواء** تجلى له نور " **اللطيف** " و " **الحي** ".. وهكذا سائر المظاهر المادية والقوى والطاقات المخلوقة في كل مكان وزمان، بما فيها الإنسان الذي جمع الله سبحانه وتعالى فيه أسرار أسمائه الحسنى ومن أجل ظهور أنوارها فيه سجد الملائكة لآدم عليه السلام في بداية خلق النوع.

إن قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق قدرة فريدة لا تماثلها قدرة أخرى، فكل قدرة أخرى محدودة بطاقة محددة، ولذا فهي طاقة محدودة ونسبية غير مطلقة، بينما قدرة الله مطلقة وغير محدودة بل هي فوق الإطلاق، ومن هنا جاز لنا أن نقول - بمفهومنا العلمي عن وصف الطاقة: إن الله سبحانه وتعالى متصف بقدرة لا نهائية، ولا محدودة، ولا محدة، ولا متناهية؛ لأنه يملك من القوة مثل القدرة، والقدرة الإلهية معروفة لنا معرفة نسبية من خلال الكون الطاقي، وهي مدركة، وملحوظة لنا من خلال تجليها في كل ما هو خلق الله المخلوق المعروف لنا، وغير المعروف كما أن قدرها الحق غير معروف لنا ولا يمكن تحديده لا بعقولنا ولا بأرواحنا ولا بأية وسيلة أخرى.

إن الكون الحقيقي بموجاته وتموجاته وذبذباته وذراته المكهربة وقواه وطاقاته وناره ونوره هو كون الأسماء الحسنى والصفات العلا التي يجمعها الاسم الأعظم (الله) وكل الكائنات والمظاهر والشؤون المادية والطاقية والقوى المخلوقة والنشطة في الكون إنما هي كائنة ونشطة بفعل تجلي وتأثير وفعاليات الأسماء الحسنى التي يجمعها الاسم (الله) نور السماوات والأرض من النجوم حتى الذرات المكهربة.

ونحن لا نرى المظاهر المخلوقة على حقيقة ماهيتها وإنما نرى

ما يشاء الله لنا أن نراه، ونعلم ما يشاء الله لنا أن نعلمه من خلال عقولنا وجهازنا العصبي في الأبعاد المتاحة لنا، أي أن حقيقة المظاهر المخلوقة مغايرة لما نراه بحواسنا.

إن ما نراه بحواسنا في العالم الطبيعي في دنيانا ونحسبه حقائقاً ليس هو الحقيقة، وذلك ما أثبته أينشتاين في النسبية. نحن لا نرى الدنيا على حقيقتها... فالألوان التي نراها مثلاً ليست ألواناً وإنما هي موجات لا تختلف في شيء إلا في طولها.. ذبذبات متفاوتة في ترددها.. ولكن أعيننا لا تستطيع أن ترى هذه الأمواج كأمواج.. ولا تستطيع أن تحس بهذه الذبذبات كذبذبات.. وكل ما يحدث أن الخلايا العصبية في قاع العين تتأثر بكل نوع من هذه الذبذبات بطريقة مختلفة.. ومراكز البصر في المخ تترجم هذا التأثر العصبي على شكل ألوان.. ولكن هذه المؤثرات الضوئية ليست ألواناً وإنما هي محض موجات واهتزازات، ولكي نميزها عن بعضها نطلق عليها هذه التعريفات التي هي عبارة عن تصورات{**إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الهُدَى**} [النجم: ٢٣]. أي أن السماء ليست زرقاء، والحقول ليست خضراء، والرمال ليست صفراء، والورود ليست حمراء... إلخ. وكل الألوان المبهجة التي نشاهدها في الأشياء لا وجود لها أصلاً في الأشياء، إنما هي اصطلاحات جهازنا العصبي وشفرته التي يترجم بها أطوال الموجات الضوئية المختلفة التي تنعكس عليه. إنها جميعاً أحكام نسبية تلك التي نطلقها على الأشياء (نسبة إلى حواسنا المحدودة) وليست أحكاماً حقيقية.. العالم الذي نراه ليس هو العالم الحقيقي، وإنما هو عالم اصطلاحي بحيث نعيش فيه متعلقين بالرموز التي

يختلقها عقلنا ليدلنا على الأشياء التي لا يعرف لها ماهية أو كنه[١].

ويظل الله سبحانه وتعالى " محيط " بالكون كله وكل المخلوقات فيه، و " عليم " بحقائقه الظاهرة وأسراره الباطنة بكلياتها وجزئياتها وتفاصيلها.

ويظل الإنسان - أو غيره من الكائنات الذكية - يترقى عبر العصور في علومه ومعارفه بقدرات عقله وقلبه وروحه بينما يظل الإله سبحانه وتعالى فوق كل ذي علم عليم، وبكل شيء عليم،، تطلبه الأرواح الطاهرة لكنها لا تبلغه، وتنشده العقول الحائرة لكنها لا تدركه سبحانه وتعالى عما يصفون علواً كبيرا.

* * *

(١) انظر في ذلك: " أينشتاين والنسبية " للمرحوم الدكتور/ مصطفى محمود، الناشر: دار الأخبار.

الفصل السادس

الله نور السماوات والأرض

الفصل السادس

الله نور السماوات والأرض

النور له خاصيتان، إحداهما موجية حبيبية وهي التي يتولد منها الضوء، والأخرى معنوية كالطاقة النفسية والعقلية والروحية، أما الضوء فطاقة ذات طبيعة موجية حبيبية فقط، ومصدر النور - من بين مصادر أخرى - الطاقة الكهربائية وهي التي نرجح حسب علمنا المحدود والله أعلم أن القرآن ذكرها في سورة النور عندما اعتبرها{**شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ**}، أي شمالية جنوبية " قطبا المغناطيس المتصل بالطاقة الكهربائية "؛ فالنور يولد ضوءًا كهربائيًا مغناطيسيًا كما يولد طاقات النور العقلي والروحي.

ولما كنا قد قلنا بإمكان أن تكون الشجرة التي وردت في سورة النور هي نفسها الشجرة المباركة الزيتونة باعتبارها معجزة الكهرومغناطيسية في الكون فنقول باختصار شديد عن الكهرباء(١) إنها هي المعجزة المتصلة بالحبيبات المشحونة السلبية والإيجابية للمادة، الثابت منها والمتحرك، فردية كانت أو في أعداد كبيرة، والكهربية تتصل بالخصائص الفيزيقية للمادة التي تشمل معجزات مثل المغناطيسية والتركيب البللوري والقدرة على التوصيل في الأجسام Ductivity Crystal Structure كما تتصل بالتفاعلات الكيميائية، وبالإشاعات الموجبة للكهرومغناطيسية التي يدخل فيها الضوء المنظور وإن أحداً لم ير أبداً شحنة كهربية كما أن أبرز ظواهر الكهربية هي الإضاءة. والبرق يعتبر من ظواهر الكهربية بالضبط كالحرارة والإضاءة والتغييرات الكيميائية والشغل الميكانيكي والآثار المغناطيسية.

---

(١) يمكن معرفة خصائص الكهرباء والمغناطيسية بالرجوع إليها بتوسع في مواضعها من كتب الفيزياء.

والكهربية كما هو معروف متصلة بالمغناطيسية اتصالاً وثيقاً بقطبيها الشمالي والجنوبي (لا شرقية ولا غربية) ذلك أن التيارات الكهربائية تولد آثاراً مغناطيسية، كما أن المجالات المغناطيسية المتغيرة تولد آثاراً كهربائية، وتمثل الكهرومغناطيسية دوراً هاماً في علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء. فاثنان من الحواس، الإبصار والإحساس بالحرارة، يعتمدان إما كلياً أو جزئياً، على تفاعل العين والجلد بالموجات الكهرومغناطيسية؛ وبالتالي فإن كثيراً من المعلومات التي يكتشفها العلماء عن العالم الخارجي تكون واسطتها الكهرومغناطيسية التي لها أيضاً آثارها في بعض الأعمال البيولوجية مثل حركة العضلات والأعصاب والمخ والقوة التي تربط الإلكترونات في النواة في الذرة هي " قوة جذب الكهربية الساكنة " [١] التي تظهر بين حبيبتين مشحونتين مختلفتين إيجاباً وسلباً، ويمكن القول في النهاية أن الكهرومغناطيسية تمثل دوراً هاماً وأساسياً في البنيان الكوني، وهي إحدى قوى أربع هي التي تمكن العلماء في عصرنا الحالي من اكتشاف وجودها في الطبيعة. والقوى الثلاث الأخرى هي:

١- الجاذبية: التي ترسل من الجرافيتونات غير المكتشفة بعد.

٢- القوى الضعيفة: المسؤولة عن اضمحلال النشاط الإشعاعي وتعتبر مفتاح الاندماج الذري بواسطة ما يعرف بحبيبات Z،W.

٣- القوى الشديدة: وهي التي تربط البروتونات والنيوترونات داخل نواة الذرة.

هذا وإن الأبحاث العلمية المتخصصة في علم الأحياء الكهربي تثبت، مع توسعها المستمر، التأثير الكهربي في الجسم الإنساني كله

(١) " Electrostatic Attraction ".

عن طريق الخلايا وتجدد الأنسجة وما يربط التركيب الخلوي في الجسم كله أثناء أدائه لوظائفه التخصصية من نظام عام للاتصالات والتوجيه، ولذلك نرى عالماً مثل الدكتور روبرت بيكير يقول: " إن الجهاز التشغيلي الذي يتمثل في الملكولات التي تحوي عالم الوراثة داخل الخلية، ليس هو السر الوحيد للحياة؛ ولكنه نوع من الكمبيوتر المبرمج الذي عن طريقه يعبر السر الحقيقي والجهاز المنظم أو المسيطر الحقيقي يعبر عن أسلوبه ونظامه في شكل الخلايا الحية... " (١).

والملائكة خلقت من نور(٢)، وروح القدس " جبريل عليه السلام نور، بينما الجن نار، وكل من النور والنار يولدان ضوءاً، ولما كان النور في أحد خصائصه ذا صلة بالطاقة الكهرومغناطيسية التي تتصل بحركة الفوتون، فإن أصل هذه الطاقة ليس ناراً وإنما نور، و " الله " سبحانه وتعالى هو " النور ".. هو نور السماوات والأرض، ونحن لا نعرف عن طبيعة هذا النور شيئاً، إلا من خلال المثل الذي ضربه الله في سورة النور عن نفسه.

{اللهُ نُورُ السماوات وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

---

(١) الطبيب روبرت بيكير (Robert Becker) هو أحد العلماء الأمريكيين البارزين في مجال أبحاث تجدد الأنسجة وصلتها بالشجنات الكهربية في الكائنات الحية. انظر كتابه المشترك مع جاري سيلدين (Gary Selden) وعنوانه (The Body Electric) طبعة عام ١٩٨٥.

وقد أثبت العالم الأمريكي روجر سبيري - من جامعة ستانفورد الأمريكية - في الأربعينات أن إعادة النمو في المحاور العصبية (Axons) يخضع لسيطرة دقيقة جداً وصارمة وأن هناك نظامًا محكمًا من الترابط بين خلايا الجهاز العصبي بما يعني أن خلايا - وبطريقة لا زالت غير معروفة للعلماء - تستطيع أن تحدد هويتها أو شخصيتها وأن تتعرف كل خلية على الخلية الأخرى، وسبحان الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

(٢) كما جاء في حديث رسول الله الذي أورده الإمام مسلم في صحيحه.

المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور: ٣٥].

وقد سمى القرآن الشمس سراجاً منيراً أو ضياءً بما تحويه من الطاقة الذاتية الضوئية والحرارية والذرية، وسمى القمر نوراً باعتباره عاكساً لضوء الشمس، بينما هو في ذاته غير مضيء، ونعلم من العلوم الحديثة أن هناك فرقاً بين الضوء الصادر من جسم مشتعل، ملتهب، مضيء بذاته في درجات حرارة عالية، وبين الشعاع المنعكس من جسم بارد يتلقى شعاع الضوء فيعكسه، " ضياء الشمس ونور القمر " كما يخبرنا القرآن بهذا الفرق**{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً}** [يونس: ٥]، وفي غير ذلك من الآيات؛ فالشمس تسرج القمر، بالضبط كما وصف القرآن النبي محمد ﷺ بأنه سراج منير يسرج بنوره العقول والقلوب والأرواح، وكما وصف الله القرآن بأنه نور يهدي الناس إلى الحق، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن خلايا المخ " النيورونات " تعمل بواسطة الكهرباء أي النور، ونشاط المخ أو القلب يعني العقل والوعي والإدراك، وجميعهم يستمدون من الروح التي هي طاقة نورية نابعة من تجلي الاسم الإلهي " النور "، وهي - أي الروح - وبالتالي الكائنات الروحية - لها أيضاً عقل ووعي وإدراك وحصافة لأن القرآن يصف جبريل الذي هو روح القدس بأنه شديد القوى ذو مرة فاستوى أي ذو عقل وحصافة، وروح القدس قد علم النبي محمد ﷺ القرآن عن طريق الوحي بالإنزال على القلب الذي له هو أيضاً وعي بالضبط كالفؤاد واللب، ومن هنا فإن النور له خاصية الإضاءة المعنوية في الهداية والعلم والوعي والإدراك والذكاء، كما أن له خاصية الإضاءة

المادية في السماوات والأرض وكل الكون، ويكون النور هو عكس الظلام بالضبط كالعمى والإبصار**{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ}** [الرعد: ١٦]، ولما كان الإبصار الحسي في الإنسان يتم عبر الضوء المنظور في موجات معينة فإن القرآن يبين لنا صلة الإبصار بالنور وصلة العمى بالظلمات، كما يبين لنا الصلة بين العلم والإيمان وبين النور من جهة، وبين الكفر والجهل، وبين الظلمات من جهة أخرى.

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]، والعمى في الحقيقة هو عمى القلب أي البصيرة، وليس عمى العينين " أي البصر "؛ لأن القرآن يخبرنا**{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ}** [الحج: ٤٦] لأن أعمى البصر يمكنه الآن بعملية خاصة تتصل بمركز الإبصار في المخ، يمكنه أن يرى ويبصر ولكن ليس بعينيه، أما أعمى القلب والبصيرة فلا يمكنه أن يبصر بأي عملية خاصة إلا أن تأتيه الهداية من الله بنور من عنده يعطيه الحياة الحقيقية، حياة الإيمان والهدي، أو يعطيه الفقه الحقيقي، فقه العظة والاعتبار، أو يعطيه الإبصار الحقيقي، إبصار تجليات الأسماء والصفات في الكائنات، أو يعطيه السمع الحقيقي، سمع الآيات وتسبيح الكائنات يقول القرآن الكريم:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ٦ - ٧].

هذا وإن التحقق بالوجود يكون بالوعي، والإدراك، ومن معاني (الله نور السماوات والأرض): أن الاسم الجامع يعلم الوجود في إحاطة كاملة وشاملة لكل الكائنات فيه مهما صغرت، أو كبرت؛ فالنور في أحد دلالاته المحتملة الحقيقية في هذا الاستعمال - وغيره أيضاً - يشير إلى الوعي، والوعي إذاً نسب إلى الله - تبارك وتعالى - يعني العلم المحيط بكل الكليات، والجزئيات، كما أنه يشير إلى الأسماء الحسنى كلها التي يجمعها الاسم الأعظم " الله "، والوعي الكلي هو الوعي الإلهي، ولا يماثله وعي آخر من أي نوع، ونحن لا ندرك حقيقته، أو طبيعته، لأنه يتصل بذات الإله الذي ليس كمثله شيء، ولكن الذات الإلهي - سبحانه وتعالى - أراد أن يقرب إلينا مفهوم هذا الوعي الخاص بذاته عن طريق تقدير حقيقة أن اسم الله هو نور الكون كله، وحقيقة مثل هذا النور كما ورد في سورة النور في الآية الخامسة والثلاثين على النحو الذي أوضحناه من قبل.

* * *

الوحدانيـة

إن تماثـل المخلوقـات فـي العديـد مـن وظـائفهـا الحيويـة يشـير إلـى وحدة مصدر إيجادهـا، فتكون كلهـا فـي كثرتهـا تعكس وحدة، وقدرة موجدها، أو خالقها الذي أوجدها، أو خلقها وكانت من قبل " لا شـيء " فالإيجـاد والخلـق يكـون مـن اللاشـيء إلـى الشـيء؛ ولـذلك يقـول القرآن{**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً**} [الإنسان: ١]، ويقول أيضاً{**وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً**} [مريم: ٩]، وذلك بلا حلول أو تحيز أو اتحاد أو تجسيم أو وحدة وجود.

أمـا قـول الإمـام الصـوفي " أبـي العـزائم " - مجدد التصـوف فـي القرن العشرين - كون المظاهر، والشئون مرائي للأسماء الحسنى(١) فيجب لفهمه أن تعلم كيف تعكس المرآة مظهر الشيء - دون جوهره - المـرآة تلـوح فيهـا صـورة الشـيء المطابقـة لأصـله تمامـاً بكيفيـة لا اتصـال فيهـا، وإنمـا فـي انفصـال بمعنـى أن المظهـر الخـارجي يلـوح، ويظهر في المرآة بالضبط كحقيقته الظاهرة لكن الذي تعكسه المرآة هو غير ذات المظهر الخارجي.(٢)

وكذلك الاسم الحسن يلوح، أو يظهر في مرآة المظهر، أو الشأن، أو الشيء بحيث يكون الاسم نفسه ظـاهراً فـي المظهر، ولكنـه غيـره، فالاسـم هـو الأصـل، والمظهـر الخـارجي هـو انعكـاس للاسـم فـي مـرآة المظهـر الخـارجي، ولـذلك فالاسم بـاق، والمظهـر فـان{**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**} [الرحمن: ٢٦]، ووجـه الـرب يعنـي الاسم الـذي يبقـى بعد فنـاء المظهـر، ذلـك أننـا إذا كسرنا المرآة تتلاشى الصورة المثالية المجسمة للمظاهر، والشؤون،

(١) تلـك المظـاهر والشـئون مرائـي ::: فيهـا تلـوح لمـن صـفوا أسـمائي
فالعارفـون يـرون سـر تنـزلي ::: والجاهلـون مـرادهم آلائـي

(٢) لحجة الإسلام / أبي حامد الغزالي نفس الرؤية تقريباً في هذه الجزئية.

ولكن الأصل يبقى كما يبقى وجه الرب المواجه لكل مخلوق.. فالاسم قديم، والصورة مخلوقة.. الأصل لا يفنى، ولا يتغير، والصورة تفنى، وتتغير.

الكون الحقيقي هو الكون الطاقي الذي هو ظل الكون الأسمائي السابق عليه في التحقق، والوجود؛ لأن الوجود في ظل الكون أو المظهر الأسمائي متصل بالوجود الإلهي المتصل بالوجود الذاتي الإلهي الذي هو الوجود الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، " وجود الله " الاسم العلم الدال على الذات الإلهي الذي هو أصل كل موجود، وخالق كل وجود غيره، وكل موجود غيره، وكل موجود مادي له ظل طاقي، وكل طاقة لها ظل أسمائي في دوائر ثلاث تبدأ بالاسم، ثم الطاقة، ثم المادة. والطاقة مظهر من مظاهر نشاطات طاقة الاسم - النور - وقدر من خصائصه، والنور - كما نعلم من القرآن - مستويات مختلفة يعلو بعضها على بعض (نور على نور) وأعلا المستويات بعد الذات نور مجلي الذات ثم نور الهوية الإلهية للاسم الجامع " الله " الذي هو نور السماوات والأرض، وبما أن الروح هي على الأرجح والله أعلم طاقة من نور لا يستطيع الإنسان خلقها أو إهلاكها - أي استحداثها أو إفناءها[١] فإنها لا يمكن أن تكون إفرازاً ناتجاً فقط عن آليات النشاط الأعلى للمخ في الإنسان، وإنما الروح حقيقة مستقلة عن المخ وحقيقة دائمة أي خالدة تستمد قدراتها وخصائصها من قدر محدود من طاقة الاسم الإلهي، " النور " الذي هو طاقة لا نهائية، وقد نفخ الله في آدم من روحه، أي من نوره، ولذلك فهي لا تفنى أو تهلك بفناء وهلاك الجسد الإنساني وتوقف جميع وظائف أعضاءه بما فيها المخ والجهاز العصبي عند الموت، فهي مخلوق يتسم بالخلود.

---

(١) كما يقضي بذلك قانون بقاء الطاقة.

سر الكلمة

سر الكلمة هو سر الخلق أي سر المخلوقات الموجودة في الكون، والكون الطبيعي يتكون من مادة وطاقة وفي حياتنا اليومية تعطينا الطاقة انطباعاً بالحركة والحيوية والقوة، وهذه الثنائية في الكون إنما تعكس في الحقيقة وجهاً واحداً حيث إن المادة تعتبر طاقة مخزونة، كما أن الطاقة يمكن أن تتحول إلى مادة والقول بأن الطاقة والمادة وجهان للكون لا يعتبر دقيقاً إذ إنهما يعتبران جانبان لوجه واحد، كما أثبت أينشتاين.

والوجود الكوني كله بأحداثه وكائناته متحقق بالأمر الإلهي المعبر عن الإرادة الإلهية كما يبينه لنا القرآن{**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**} [يس: ٨٢]؛ فتحقق الشيء بالوجود والحدوث أي بالكينونة هو نتيجة مباشرة للأمر المعبر عن الإرادة وكل ما يتحقق في الوجود هو بعلم الله المحيط بالكون كله ومن فيه وما فيه سواء كان هذا التحقق بطريق مباشر أو عبر قوانين التطور وأزمنتها الهائلة.

إن{**كُن فَيَكُونُ**} هو القول أو الكلمة الوصفية المعبرة عمَّا يشاءه الله ويريده ويحقق أمره فيما يحيط به علمه الشامل القديم بالكليات والجزئيات والتفاصيل في القضاء والقدر الذي يحويه (أم الكتاب) من القدر الغيبي الكلي الثابت الدائم الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا نطلع عليه ولكن الإيمان به واجب؛ ومن هنا كان عملنا وأخذنا بالأسباب لأداء دورنا في الخلافة في الأرض مستقرنا المؤقت، ومن هنا أيضاً كنا مسؤولين عن سعينا وأعمالنا في الدنيا وهو ما نحاسب عليه في الآخرة{**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى**} [النجم: ٣٩ - ٤١]. ولا يكون ولا يحدث في هذا الكون وفي أرضنا منه، أي مُلك الله وملكوته، إلا ما يشاؤه الله لأن ما

شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

إن مشيئتنا مستمدة في الحقيقة من مشيئة الله**{وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً}** [الإنسان: ٣٠] ومشيئة الله النافذة هي أن نشاء نحن**{وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}** [الكهف: ٢٩]. وفرق في التوحيد بين الإرادة والأمر الإلهيين، فكل ما يكون أو يحدث للإنسان، بل في الكون كله، إنما يكون أو يحدث بمشيئة الله وإرادته، ولكن ليس بالضرورة بأمره كما في المعاصي مثلاً لأن الله لا يأمر بالمعاصي**{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}** [النحل: ٩٠]؛ ولذلك كان الجزاء على العمل والحساب يوم القيامة.

إن الله هو خالق كل شيء سواه بما في ذلك الإنسان وعمله**{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}** [الصافات: ٩٦]، و(خلق الأعمال) وهو إيجادها من العدم أو من اللاشيء يختلف تماماً عن (المسؤولية عن الأعمال) لأن الإنسان يعمل أعماله بإرادته الحرة واختياره الحر فيكون بذلك مسؤولاً عنها**{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراًّ يَرَهُ}** [الزلزلة: ٧ - ٨]، وكل إنسان يتحمل مسؤولية عمله في الخير والشر في الدنيا دون أن تزر وازرة وزر أخرى. وخلق الله للأعمال يعتبر مظهراً من مظاهر الطاقة الإلهية الإسمائية لأن الإنسان يعمل أعماله من خلال طاقته وقدرته الجسدية والعقلية والنفسية والقلبية بإرادته الحرة واختياره الحر، ومصدرهم جميعاً النفخة الروحية في الإنسان منذ آدم الأول وهي طاقة ربانية تحرك الإنسان في كل أعماله ووظائفه.

وقد حمل الإنسان الأمانة دون السماوات والأرض وكان بذلك مكلفاً بالعقل، ظلوماً لنفسه، جهولاً بتبعات الأمانة وعواقبها

والمسئولية عنها{**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السماوات وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**} [الأحزاب: ٧٢].

إن الإلـه الجامع للأسماء الحسنى والصفات العلا (الله) الاسم الأعظم العَلَمُ الدال على الذات الإلهية هو{**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} [الملك: ١]، فملك وملكوت السماوات والأرض في قبضته أي قدرته أي قوته أي طاقته{**وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**} [الزمر: ٦٧]، كما يحدثنا القرآن في الآية ٤٧ من سورة الذاريات{**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**}، وأييد تعني بقوة وقدرة - من آد يئيد أيدا - وموسعون من الاتساع أو الامتداد أو من الوُسع أي الطاقة.

إن الحق الوحيد والواحد الواجب الوجود لذاته[1]، المحيط بالقدرة بكل شيء في هذا الكون بأرضه وسماواته بالمشيئة النافذة والأمر الناجز والعلم الشامل القديم بالكليات والجزئيات، لا يحده المكان ولا الزمان ولا أي بعد آخر أياً كان هو حق الألوهية (الله) الاسم الأعظم الجامع للأسماء الحسنى كلها ذو الإرادة والعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والكلام، يعبرون مع سائر الأسماء الحسنى عن طاقته في قدوسيته، وعن تفرده في أحديته، لتتحقق المخلوقات كلها بما فيها الإنسان بحق شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في كتابه الكوني.. وحق شهود محمد رسول الله في كتابه القرآني مصدقاً

(١) واجب الوجود هو الذي لا يحتاج إلى علة أو سبب أو غيره في وجوده، وواجب الوجود عكس ممكن الوجود. والله وحده هو واجب الوجود لذاته وكل ما سواه ممكن الوجود؛ لأنه سبحانه الأول الذي ليس له بداية أو قبل، والآخر الذي ليس له نهاية أو بعد، والباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يتغير أو ينتهي، والحي الذي لا يموت، والقيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يضل ولا ينسى.

لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه. وبهذه الشهادة وهذا الشهود يتحقق " إسلام الوجه لله "**{وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}** [النساء: ١٢٥] وملة إبراهيم عليه السلام هي الإسلام**{إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ الله اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [البقرة: ١٣١ - ١٣٢]؛ فالإسلام هو جوهر وحقيقة الدين كله**{إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإِسْلامُ}** [آل عمران: ١٩] منذ أول الأنبياء وحتى آخر الأنبياء والمرسلين محمد رسول الله ﷺ، الذي جاء بالتوحيد لكل من في السماوات والأرض**{أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}** [آل عمران: ٨٣]، أي وله سبحانه استسلم وانقاد كل من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن وأي كائنات أخرى طائعين وكارهين فالكل تحت قهره وسلطانه وقبضته وقدرته.

إن الزمان الذي تتحقق فيه الأحداث وحركة الموجودات الكونية، هو زمان نسبي للكائن العاقل الذي يراقب أحداث الكون، فالإنسان مثلاً يعد ويحصى الزمان في قياسات متصلة بالمجموعة الشمسية سواء بحركة الشمس أو حركة القمر " السنة الشمسية والسنة القمرية ". أما بالنسبة لله - سبحانه وتعالى - فهو خارج هذا البعد الزماني ولا يقاس إليه الزمان كما يقاس بالنسبة للإنسان، فأحداث الكون تتحقق فيما يعرف بصفر زمن أو لا زمن بالنسبة لله سبحانه وتعالى بينما هي بالنسبة للإنسان قد تمتد إلى آلاف وملايين السنين محسوبة بالحساب الزمني الأرضي.

فالزمان وهو البعد الرابع في الكون، هو ناتج (الحركة) وهو مقترن بها، أما في فرض السكون وعدم التغير - سواء كان التغير

بالتجدد أو التمدد أو التحول أو التكاثر أو التبدل أو النمو.. الخ - فإن الأمر يختلف تماماً. ووجود الزمان يبدأ منذ لحظة الخلق الأول أو أول خلق يلي حقيقة كان الله ولا شيء غيره، أما حساب أو قياس الزمان فهو ناتج (المسافة + السرعة) أي سرعة الشيء المتحرك في المسافة المعينة، والزمان يختلف من كائن لآخر في الأرض من حيث حسابه وقياسه، ويختلف في المجموعة الشمسية من كوكب إلى آخر، ثم هو يختلف في المجموعة الشمسية ذاتها عنه في مجموعات شمسية أو نجمية أخرى في نفس مجرتنا أو خارجها، بينما هو يقاس في الأبعاد الكونية الهائلة بسرعة الضوء التي تبلغ حوالي ٣٠٠.٠٠٠ كم تقريبًا في الثانية الواحدة(١) من ثواني حسابنا الأرضي.

إن تجدد الخلق يكون حادثاً في الزمان كما قلنا بمعنى تجدد الخلق في الزمان بالنسبة لمخلوق يتميز بالوعي والإدراك بحيث يعي ويدرك ويحس بوجود الزمان ويرى المظاهر والشؤون المتجددة من خلال هذا البعد الزماني بالعد والحساب**{كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}** [الرحمن: ٢٩].

وتجدد الخلق يعني استمرار ترقي العلم الإنساني الذي يعتبر - رغم ترقيه المستمر - محدود بالنسبة لعلم الله سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء في كل وقت ولا يحيط الإنسان بشيء من العلم الإلهي إلا بما شاء الله**{وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ}** [البقرة: ٢٥٥] دون أن يتساوى علم الإنسان مع علم الله كما يعلمه هو سبحانه، وعملية الخلق والإيجاد والتصوير مستمرة بقدرة الله سبحانه وتعالى غير المحدودة، ولا تنتهي وهو المعنى المقصود - والله أعلم - من

(١) الرقم العلمي المعترف به دولياً والمستخدم في الأبحاث العلمية بدقة متناهية هو (٢٩٩.٧٩٢.٥) كيلو متر ثانية.

النصين القرآنيين التاليين الأول عن حضرة الربوبية والثاني عن حضرة الألوهية:

{قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً} [الكهف: ١٠٩]،**{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ}** [لقمان: ٢٧].

ولما كان التغير أو التحول وضعًا طبيعيًا لكل الكائنات، العاقلة وغير العاقلة فإنها لابد أن تكون مستمدة طبيعتها ومستمدة لخصائصها ووجودها من مصدر غير متغير وغير متحول أي ثابت ودائم الرقابة لا تأخذه سنة ولا نوم بحيث تكون لهذا المصدر القدرة المستمرة والدائمة على الصنع والإيجاد أي الخلق المستمر والمتجدد**{كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}** [الرحمن: ٢٩] في ظل نظام أو قانون مستمر غير متضارب لأنه إن لم يكن هذا المصدر كذلك لأصبح هو مفتقراً ومحتاجاً لهذا المصدر، كما أن انتظام القانون واستمراره، وعدم تضاربه كما هو مشاهد في الكون يعني وحدانية هذا المصدر لأنه لو شاركه في الخلق والإيجاد والصنع مصدر آخر لفسد النظام والقانون وتضارب، أي**{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا}** [الأنبياء: ٢٢]، أو لذهب كل خالق بما خلق يدبر شؤونه على غير النمط الوحدوي المشاهد في الكون وقواه وطاقاته.

والذي يتدبر القرآن يجد في الكثير من المواضع وضوح صلة الإلوهية بالمخلوقات حيث إن المخلوقات هي صنعة الله سبحانه وتعالى، وتظهر هذه الصلة واضحة بصفة خاصة في العلاقات بين أسماء الله الحسنى وبين المخلوقات كلها باعتبار أن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء وواضع النظام والقانون لسلوكيات كل شيء**{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً}** [الفرقان: ٢]، وتظهر هذه الصلة

بين الخالق والمخلوق في شكل القوانين أو السنن الطبيعية في الكون كله مما نعرف من سلوك المادة والطاقة والقوى والكائنات الحية والخواص الدقيقة لكل منهم، وأيضاً في شكل القوانين والسنن التي تحكم العالم الروحي في الكون كله مما نعرف - على قدرنا - من سلوكيات الأرواح والعوالم النورانية والخواص الدقيقة لكل منهم.

وإذا افترضنا وجود الإنسان وحده في عالم وكون بلا نور فإنه لن يرى شيئاً لأن حاسة البصر لديه تعمل نتيجة وجود الموجات الكهرومغناطيسية للضوء في أطوالها التي يمكن أن يرى من خلالها الإنسان، فإذا انعدمت لن يرى الإنسان شيئاً على الإطلاق، ولن يمكنه أن يحصل على أي قدر من المعلومات ولو ضئيل عما حوله لأنه سيكون محجوباً بالظلمات{**الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**} [الأنعام: ١].

وكما أن الإنسان لن يستطيع رؤية ما هو بعد الظلمة أو فوق الظلمة المحيطة في الكون فكذلك لن يستطيع رؤية ما بعد النور أو فوق النور الخارج عن إمكانيات بصره في الكون أيضاً، ويختلف الأمر بالنسبة للعوالم النورية أو الروحية التي تبصر من خلال نور ذاتي لا يفارقها هو جزء من طبيعتها التي خلقها الله عليها.

ونلاحظ أن الروحية الحديثة والباراسيكولوجي أكثر دلالة وتوضيحاً للمفاهيم المتصلة بشدة قوة الروح النوري، ورغم التقدم الملحوظ في هذين العلمين فإن معلوماتنا عن الروح النوري أو النور الروحي ما زالت قليلة{**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**} [الإسراء: ٨٥] ومما نعرفه الآن أن العالم الروحي النوري له قوانينه الخاصة به وهي مختلفة عن قوانين الكون الفيزيقي، وأن قوة أو طاقة الروح تفوق بكثير قوة الجسد في

الكون الفيزيقي، كما أن حركة الروح قد تماثل الحركة الفكرية لدى الإنسان، بمعنى قدرة الروح على التحرك في المسافة بمثل سرعة الفكر لدى الإنسان، ومن ثم فإن سرعة الضوء الثابتة في الكون الفيزيقي تتضاءل أمام سرعة حركة النور الروحي، ولما كانت معلوماتنا محدودة بسرعة الضوء فإنه لابد أن تكون معلومات العالم الروحي أكثر اتساعاً وأكبر قدراً من معلوماتنا.

والعوالم الروحية الصرفة لا تحتاج لأي طاقة فيزيقية لتحريك أو أداء نشاطها كما هو الأمر بالنسبة للملائكة والروح، لأن طاقاتها الروحية الواعية تستمد من نور رباني يمثل صورة غير معروفة لنا من صور الطاقة التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى والتي تدخل في عالم الأمر الرباني الذي لا يزال الإنسان قليل المعلومات حياله كما قلنا.

كذلك فإن الحقيقة في تقديرنا روحية أساساً، ويؤيد ذلك أن الحق الذي جاء به القرآن فيما يتعلق بحقائق العالم الفيزيقي والروحي على السواء، جاء عن طريق التنزل بالوساطة الروحية إلى الخاصية الروحية المدركة في الخلق المزدوج الفيزيقي والروحي لفرد من الإنسانية اختير لتلقي وإبلاغ الحقيقة هو النبي الخاتم محمد ﷺ**{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ}** [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤].

فالقرآن في تفسير آياته وتأويلها يمكن أن يفسر الحقائق الفيزيقية والروحية على السواء لأنه يتناولهما من منظور شامل، والقرآن روح**{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا}** [الشورى: ٥٢] ومصدره روحي**{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ}** [الشعراء: ١٩٣]. وبذلك تكون الروحية هي السبيل المؤدي إلى تفسير الحقائق التي تعجز العلوم الطبيعية أن تجد لها تفسيراً مادياً صرفاً مما يمكن أن يعطينا تصورات

ومعلومات عن حقائق الوجود تختلف تماماً عما نعلمه من أبعاد وخصائص كونية ندركها بمعلوماتنا الحسية؛ فالإدراك أو الوعي الروحي عبارة عن مستوى أعلى من الإدراك، متصل بالحقائق كلها، الفيزيقية والروحية على السواء، وتتعامل معه القوانين الروحية بالضبط كما تتعامل القوانين الفيزيقية مع العالم الفيزيقي.

الألوهية في القرآن:

إن علينا أن نفهم كيف يتصرف العالم الطبيعي حتى تتضح لنا آيات الله خاصة فيما يضربه القرآن من أمثال كي يعقلها الإنسان ويتدبرها ويفهم معناها، ولابد أن ندرك جيداً أن هناك عالمًا روحيًا يسميه القرآن بعالم الأمر يختلف تماماً عن هذا العالم الفيزيقي المتصل بالإنسان ومعلوماتنا بالنسبة لتصرف هذا العالم الروحي ما زالت قليلة، ومن ثم يكون الاعتماد على الوحي الإلهي ضروري لفهم ها العالم بالقدر المتاح من المعلومات التي ينقلها إلينا هذا الوحي، وليس يمنع ذلك من أن نجتهد بقدر ما يتوافر لنا من وسائل ومعلومات لفهم هذا العالم الروحي - عالم الأمر - فهما أكبر من خلال التعامل مع هذا العالم نظرياً أو اتصالاً واختباراً بالقدر الذي تسمح لنا به قدراتنا وتجاربنا ومعارفنا، خاصة فيما يتعلق بالإدراك الحسي الزائد وظواهره المختلفة التي تتجاوز حدود القوانين الفيزيائية المعروفة لنا في العالم الفيزيقي من خلال طاقات العقل والروح في الإنسان وتأثيراتهما على المادة.

إن هناك مصدراً للطاقة منفصل عن المخ، يتصل بالكهرباء التي تمد المخ بالقدرة على أداء وظائف وآليات معينة يظهر عندها العقل بكل خصائصه المعروفة في الإنسان، فالطاقة في الخارج والداخل أو الظاهر والباطن، واحدة وهي متصلة بالإنسان ومنفصلة في الوقت نفسه، ونقرب هذا المفهوم عن طريق ما يعرف الآن بآلة أو جهاز

التحكم عن بعد " الريموت كنترول " الذي يقوم بتشغيل الجهاز الذي هو متصل به ومنفصل عنه في الوقت نفسه، ويكون الجهاز المستقبل معداً بطريقة تسمح له باستقبال اتصالات الريموت كنترول، وهو ما يحدث بالنسبة للإنسان أيضاً بواسطة المخ الذي يستقبل اتصالات المصدر الطاقي الخارجي (المتصل والمنفصل كما قلنا)، فالمعلومات مصدرها هذه الطاقة العاملة في بيئة الطبيعة وبيئة ما وراء الطبيعة، ويحصل الإنسان على هذه المعلومات بعدة وسائط متاحة له ولكن بقدر محدود كما أنه يستطيع أن يختزنها بواسطة المخ ويتذكرها ويسترجعها، أو ينساها أحياناً، ولكي يستطيع الإنسان أن يقوم بهذه العمليات فإنه لابد أن يستمد من طاقة الخارج والداخل " الظاهر والباطن " ويوصلها بطاقة أخرى هي الكهرباء أو الشجرة المباركة الزيتونة التي وردت في سورة " النور "، الموجودة في خلايا الجسم السارية في خلاياه العصبية في المخ وهي النيورونات وما يجري أيضاً داخل جسم الإنسان من نشاطات كهربية وكيميائية أخرى.

والقرآن يذكر لنا عملية الحصول على المعلومات واختزانها وتذكرها واسترجاعها في العديد من الآيات التي تتحدث عن " الذاكرة " لدى الإنسان، وخواصها العقلية لكن العلم المحيط الشامل هو علم الله سبحانه وتعالى، والإنسان - عن طريق وسائط المعرفة المختلفة - يحيط بقدر محدود من هذا العلم الإلهي اللامحدود ويكون الإنسان معرضاً دائماً للخطأ والنسيان، ويبقى الله - سبحانه وتعالى - فوق كل ذي علم عليم لا تأخذه سنة ولا نوم:**{قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى}** [طه: ٥٢]، إنه كلما توصل الإنسان إلى معارف أو معلومات جديدة يضيفها إلى سجل أو كتاب معرفته، كلما بدا له المجهول أكبر وأوسع مما كان يظن، ومن هنا فإن العلم لا يعرف الكلمة النهائية بينما العلوم في

القرآن هي الكلمة النهائية التي تحتاج إلى تجدد الفهم الإنساني لها ليظهر الجديد من معانيها، فالمعلومات القرآنية مطابقة للعلم الإلهي الذي يعلم كل شيء عن كل شيء بحيث يعتبر الوجود كله بما فيه ومن فيه، معلومات مخزونة مطابقة لأصل المعلومات التي يعلمها الله، كما أن ما يحدث في الوجود من شئون أو أعمال مادية وطاقية وسلوكية، إنما يتم وفقاً للمعلومات الإلهية باعتبار الله هو العليم والشهيد، وتكون الفكرة النهائية هي أن الخالق يسع كل شيء علماً وأن المخلوق لا يحيط علماً بالخالق{**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**} [طه: ١١٠].

وفي الجسد البشري المكتمل أو المُسوَّى فإن الطاقة الكهربائية هي الوسيط الذي تتفاعل معه الطاقة الروحية لتمكن المخ أو القلب من أداء وظائفه من الإدراك والوعي والعقل على النحو الذي نعرفه من خلال وظائف وآليات المخ الأعلى وما يتصل به من الأعضاء ووظائفها.

والإله الذي نعبده في الأديان هو - كما يقول القرآن في سورة النور - نور السماوات والأرض، وهو غير معروف لنا في ذاته بالضبط كما لا نعرف ذاتية الكهرباء مثلاً ونعرف فقط آثارها، ولا نعرف ذاتية الإدراك والوعي إلا من خلال آثارهما.. فنحن لا نستطيع أن نرى الإدراك في المخ، ولكي ندرك معنى كون الله نور السماوات والأرض - كما ورد في سورة النور - فإن القرآن يضرب لنا مثلاً لهذا النور في المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة الموقدة التي تنتج عنها الإضاءة عندما تتصل بها الطاقة الروحية، أي ينتج عنها الإدراك أو الوعي أو العقل، والمخ يحتاج إلى خلايا حية مكهربة ليظهر العقل، والحياة تحملها " النفس الواحدة " أو " الخلية الواحدة " لأنه إذا ماتت جميع خلايا المخ فإن الإدراك والوعي

والعقل لا يظهر، ليس لتوقف وظائف المخ كما قد يبدو ظاهرياً، ولكن لتوقف الاتصال الجاري بين الطاقة الروحية وبين المخ إذ تنقطع التيارات الكهربائية في المخ وينقطع الاتصال الروحي بها باعتبارها " وسيط "، ومع ذلك تظل قدرات العقل أو الإدراك أو الوعي موجودة في مصدرها الأصلي الذي هو الروح.

ورغم أن الحياة في الأجساد تنتهي بموت النفس أو مجموع النفوس " الخلية أو الخلايا " إلا أن الروح لا تموت وإنما هي تستمر في الوجود لسبب بسيط وهو أنها نفخة من روح الله أي قبس من نور الله أي خلق من تجليات أسماء الله، والله حي لا يموت، ويعترف العلماء اليوم بأنهم لم يكتشفوا مخ الإنسان اكتشافاً كاملاً أو نهائياً، وإني اعتقد أنه ما زالت هناك خواص وخصائص متصلة بالمخ لم تكتشف بعد وهي تلك التي تتصل بمستويات الإدراك الظاهر والباطن سواء كان متصلاً بالحواس أو زائداً عنها كما هو مثلاً في القلب أو الفؤاد واللب، وكون هذه المستويات لم يكتشفها العلماء بعد لا يعني أنها غير موجودة، ولما كان القرآن قد تحدث عن القلب والفؤاد واللب وما يتصل بهم من إدراك ووعي وعقل فيظل علينا أن نتدبر ونفهم مقصود الآيات القرآنية من الناحية العلمية كما يظل من واجب العلماء مواصلة البحث والدراسة من أجل اكتشاف الحقيقة في ذلك، وعلى سبيل المثال تقول الدراسات الطبية الحديثة التي أجراها علماء بريطانيون أن الإنسان له مخان وليس مخاً واحداً كما هو شائع، الأول في جمجمة الرأس، والثاني في القناة الهضمية، وأوضحت هذه الدراسات أن مخ الإنسان الثاني يقع في غلاف الأغشية النسيجية الممتدة في المريء والمعدة والأمعاء الدقيقة والقولون، وهو يشتمل على موصلات عصبية كهرومغناطيسية وبروتينات مهمتها حمل الرسائل بين الدوائر العصبية المعقدة للمخ

التي تمكنها من القيام بوظائف التعلم والتذكر[١]، وذلك يؤكد ما سبق أن ذكرناه من أنه رغم التقدم الذي أحرزه الإنسان في مجال العلوم البيولوجية والنفسية وجراحة المخ والأعصاب والعلوم المتصلة بالإدراك ووظائف الأعضاء وغيرها، إلا أن العلم ما زال يقف حائراً أمام العديد من أسرار المخ البشري حيث يكتشف العلماء مع مرور كل يوم شيئاً جديداً عنه. ونفس الأمر بالنسبة للقلب، فقد اكتشف العلماء أن القلب به أكثر من أربعين ألف خلية عصبية لها دور هام في قدرات التفكير والإدراك والإحساس والسلوك والتحكم في المخ وقد أشار القرآن من قبل إلى هذه الخواص في القلب في الآية ٤٦ من سورة الحج{**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**}.

وقد ذهب الأسقف جورج بيركلي[٢] - وآخرون من بعده - إلى القول بأن العالم الخارجي لا وجود له في حقيقة الأمر إلا في عقولنا، ولكن الرأي عندي أن العالم الخارجي موجود فعلاً في الواقع مستقلاً عما هو في عقولنا، لكننا نعلم عنه ما نعلمه أو نراه أو نتصوره حسب وسيط المعرفة الذي نستخدمه، فإن ما ندركه عن هذا العالم بحواسنا محدوداً وليس كامل الدقة أو الصحة، كما أن ما ندركه بعقولنا المتصلة بالمخ يتقلب بين الصواب والخطأ وبين الافتراض أو النظرية أو القانون، ولذلك فهو أيضاً محدود رغم كونه أكثر دقة وصحة مما نراه بحواسنا وكذلك فإن ما نراه أو نعرفه من خلال طاقتنا الروحية يعطينا معلومات مغايرة عما نراه بحواسنا وعقولنا المتصلة بالمخ ويفتح أمامنا ميادين جديدة من المعارف والعلوم.

إن هذا الكون لا يحد الله سبحانه وتعالى، لأن الكون دائم التغير

(١) وقد نشر ذلك في مصر في جريدة الأهرام عام ٢٠٠٢.

(٢) في القرن الثامن عشر في رسالة له عن " مبادئ المعرفة الإنسانية ".

في اتساع وامتداد بعد انكماش، وكان مركزاً في كرة من الغازات والنار أولية ذات كثافة عالية كانت نواة كل المادة والطاقة في الكون الذي كان لا صورياً في الأصل وصورياً بعد مراحل تطوره في الزمان(١).

ولما كان القرآن الكريم هو الكلمة المكتوبة بالبيان العربي التي تحوي الحق في ذاتها وتعكس الحق في الكلمة المخلوقة في الكون

---

(١) هذا ما تقرره نظرية " الدوي الكبير Big bang "، وهي أكثر النظريات العلمية الحالية تمشياً مع المفاهيم القرآنية، ومفهوم النظرية باختصار غير مخل هو الآتي: إذا كان الكون يتسع بصفة مستمرة ورتيبة فإنه يكون من المنطقي أن نفترض أنه كان أصغر في الماضي مما هو عليه الآن، وأنه في زمان ما في الماضي البعيد - يقدره العلماء اليوم بحوالي خمسة عشر بليون عام تقريباً - ابتدأ الكون كجوهر كثيف من المادة أو كرة من النار مضغوطة وذات حرارة وكثافة عاليتين جداً، وأول من أشار إلى هذا الاحتمال في عام ١٩٢٢ هو العالم الرياضي السوفيتي " أليكراند روفيتش فريدمان "، وفي ذلك الوقت لم يكن الدليل على اتجاه المجرات نحو الاتساع بسرعات كبيرة قد تثبت بعد، ومع العالم السوفيتي " فريدمان "، تمكن عالم الفلك البلجيكي " جورجيوميتر " من أن يصل إلى النتيجة نفسها بأبحاثه المستقلة التي لم يعتمد فيها على أبحاث سابقة " فريدمان ".

وقد أطلق " لوميتر " على الصورة الأولى لبداية الكون تعبير " البيضة الكونية Cosmic egg " ووفقاً لمعادلات " ألبرت أنشتاين " الرياضية، فإن الكون لا يمكنه إلا أن يتسع بصفة مستمرة، وأنه آخذاً في الاعتبار لكثافته الهائلة، فإن الاتساع كان لابد أن يتم عن طريق انفجار شديد ورهيب وعنيف، وعلى ذلك فإن المجرات الموجودة حالياً هي عبارة عن قطع أو شظايا من هذه البيضة الكونية، وأن ابتعادها عن بعضها بسرعاتها الكبيرة هو صدى لذلك الانفجار الذي وقع منذ سحيق الزمن، ويعتبر عالم الفيزياء الأمريكي " جورج جامو " هو أول من استطاع أن يشيع هذه النظرية في الأوساط العلمية وأن يسمى هذا الانفجار بلفظه الشائع "Big Bang " أي " الدوي الكبير "، وهو الاسم الذي أصبحت النظرية معروفة به في الثلاثينيات والأربعينيات.

ومع تطور العلوم الفيزيائية الفلكية، ظهرت أدلة كثيرة تؤيد النظرية وثبت حدوث الانفجار الكبير في لحظة من لحظات الماضي السحيق يقدرها العلماء بحوالي خمسة عشر بليون عام أما ما كان موجوداً أو ما حدث قبل الانفجار الكبير فإن العلماء يعترفون بعدم معرفتهم به ويذهب الرأي الأرجح في الأوساط العلمية إلى أن الكون بدأ من " لا شيء " (كان الله ولا شيء معه)... الحديث النبوي الشريف.

بعالميه الفيزيقي والروحي وخالقهما الموجد هو الله سبحانه وتعالى وحده فإن إيجاد صورة كتابية أخرى مطابقة طبق الأصل أمر مستحيل على أي مخلوق{**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**} [الإسراء: ٨٨]، بالضبط كما أن إيجاد صورة مطابقة لأصل الكلمة الكونية المخلوقة أمر مستحيل على غير الله سبحانه وتعالى{**أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ**} [يس: ٨١]، ولذلك أيضاً كان حفظ هذا القرآن بالبيان العربي موكول إلى منزله{**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} [الحجر: ٩]، بالضبط كما أن حفظ الكون موكول إلى خالقه{**إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات وَالأَرْضَ أَن تَزُولا**} [فاطر: ٤١].

* * *

الفصل السابع

الزمـان والطـاقة

الفصل السابع
الزمان والطاقة

إننا نعلم أن الكون كله حركة، تسيرها قوى أو طاقات، وكل الأشياء المخلوقة في الكون متحركة حركة نسبية، سواء بالتفاعل أو بالسباحة في فلك أو بالنمو أو بالتولد أو بالتوالد أو بالتكاثر أو بغير ذلك من أشكال التغيير المختلفة، والحركة تتصل بالزمان والسرعة والمسافة الذين لا يتعرف عليهم الإنسان إلا بالإحصاء أو القياس أو العد أو الحساب، ومع ذلك ليس في قدرة الإنسان أو أي مخلوق أن يحصى أو يعد كل المخلوقات الموجودة في الكون، حتى بأدق وأحدث وسائل العد والإحصاء، والله هو " الواحد " الذي في قدرته ذلك، ولذلك يخبرنا القرآن أن من أسماء الله " المحصي "**{لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداًّ}** [مريم: ٩٤].

إن إحصاءاتنا أو قياساتنا، نحن البشر، المتصلة بالزمان والمكان لا تنطبق على الكون كله، لأن هذه الحسابات صحيحة فقط بالنسبة لوجودنا في كوكبنا الأرض في مجموعتنا الشمسية فإن إحصاءاتنا أو قياساتنا وعدنا يختلف من كوكب إلى آخر، وكذلك الأمر بالنسبة لما نعرفه من تأثيرات القوى علينا كتأثير قوة الجاذبية في الأرض وما يتصل بذلك - مثلاً - من أوزان، فوزن إنسان في الأرض يزيد عن وزنه في القمر نتيجة الفرق في تأثير الجاذبية في المكانين.. بينما ينعدم الوزن عند غياب تأثير الجاذبية كما في الفضاء غير المتأثر بالجاذبية، وكذلك فإن القياسات العددية لليوم والشهر والسنة تختلف في حسابها في كوكبنا عنها في كوكب آخر غير الأرض وذلك نتيجة اختلاف علاقة الحركة

بين الشمس وبين كل كوكب من كواكب المجموعة الشمسية، أما " الله " - سبحانه وتعالى - فلا تنسب إليه أبعاد الزمان والمكان ولا قياساتهما النسبية ولا أي أبعاد أخرى، والإحصاء هو علمه الذي لا يتغير ويشمل الكون كله بكل مخلوقاته**{إِن كُلُّ مَن فِي السماوات وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً}** [مريم: ٩٣ - ٩٤]؛ لأن علمه وسع كل شيء بينما نحن - أو غيرنا - لا نحيط بشيء من علمه إلا بما شاء هو سبحانه، كما يعبر القرآن عن البعد الزمني المتصل بالكون والمخلوقات العاقلة فيه في الآية التالية**{الَّذِي خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً}** [الفرقان: ٥٩]، أي أن الكون - السماوات والأرض وما بينهما من فضاء أو مناطق مأهولة - يقع في البعد الزماني الذي هو البعد الرابع في الكون " ستة أيام "، بينما الله - سبحانه وتعالى - لا يقع في البعد الزماني لأنه لا يحده الزمان كما لا يحده المكان أو أي بعد آخر كالطول والعرض والعمق، كما يخبرنا القرآن أيضاً في هذه الجزئية، ومتصلاً بيوم القيامة**{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً}** [المعارج: ٦ - ٧]، فبينما يعد ويحصي الإنسان ملايين أو بلايين السنين بمقياسه الزمني الأرضي فيرى الأمر بعيداً، فإن الله سبحانه وتعالى الذي لا يحده الزمان ولا يخضع لمقاييسه يكون الأمر عنده قريبا؛ حيث فارق البعد والقرب هو فارق زمني؛ ولذلك يخبرنا القرآن أيضاً**{وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}** [الحج: ٤٧]، وذلك فيما يتعلق بالإنسان في الأرض، أما فيما يتعلق بالكائنات الروحية، كالملائكة والروح، في عوالمها**{تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ**

كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤]، وهنا لم يحدد القرآن ماهية الخمسين ألف سنة، فلم يحددها بما نعده نحن في الأرض، كما هو الأمر في الآية السابقة، وإنما جاء السياق مطلقاً بما يحتمل كونها خمسين ألف سنة ضوئية[١] أو غير ذلك مما لا نعرف من الأزمنة في الكون أو غيره من العوالم القادر على خلقها الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن الملائكة والروح خلقوا من نور.

إن القدر من الطاقة الذي يتعامل معه الإنسان جزء ضئيل جداً من مقدار الطاقة الكلية في الكون كله، بما في ذلك طاقات العقل والروح وتأثيرهما على المادة.

إن الطاقة كما ذكرنا غير معروفة الكنه أو الماهية أو الذاتية، ولكنها محرك هذا الكون كامنة فيه أو دافعة لحركة موجوداته، وهي أقرب طريق يوصلنا إلى معرفة الخالق المعبود بقراءة مخلوقاته وحركاته وتصرفاتها الدالة كلها على عظمة ربها وخالقها، فالله يظهر " يتجلى " بالقدرة والعلم والحكمة في التفاصيل الدقيقة التي تحويها الأشياء في تفاعلاتها وفق النظام أو القانون أو السبب الموضوع لها، وينتج عنها الخلق الجديد{**بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**} [ق: ١٥]، وخاصة فيما هي مهدية إليه من التخصص في سعيها البلوغ كمالها المتمثل في النهاية في غاية أو هدف محدد لها بالقصد والإرادة وليس بالعشوائية والصدفة، إن كافة الكائنات تعيش في تكامل، وهي تجد في تصرفاتها التكاملية أسلوب لإيجاد خلق أكمل، والله سبحانه وتعالى قيوم دائم يرعى

(١) السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء (٣٠٠.٠٠٠) كم/ ثانية في السنة الواحدة، إلى أن اكتشف العلماء في النمسا سرعات أكبر للضوء.

المخلوقات كلها في الكون كله بفطرتها الذكية التي هي مهدية إليها{الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠]، تجد فيها تكاملها من أجل تحقيق ذاتها، وإخراج مخلوقات أكثر كمالاً، والله سبحانه وتعالى يدبر الكون والكائنات بحكمة وتدبير محكم يرى فيه كل التفاصيل، ويعلم معه كل الدقائق ليتمحور حول ذاته افتقار كل ما سواه إليه.

إن هذا الافتقار هو سمة كل مخلوق يرنو إلى التقدم والارتقاء والاقتراب من الحقيقة الكلية فيما تظهر به في الكون وكائناته المخلوقة، وتلك هي عبادة المخلوقات تعبر فيها عن افتقارها لخالقها الأعظم، صانعها وموجدها، وأداء وظائفها التي هي مهدية لها بهدف الاتساق مع القوانين الإلهية " السنن " التي يسير عليها الكون وكل كائناته..

* * *

الإلوهية والطاقة

إن مفهوم إعجاز القدرة الإلهية يظهر بشكل أوضح من خلال الطاقة أي " القدرة " التي يتصف بها " الله " تبارك وتعالى الذي يتجلى أي يظهر بأسمائه وصفاته الحسنى في كل صور وأشكال الطاقة المختلفة[١] والطاقة التي نعرفها في الأرض والسموات إما طليقة وإما كامنة، أي إما ظاهرة وإما باطنة، وقد سخرها الله للإنسان الذي بدوره يمكنه أن يستعملها في النفع أو الإضرار{**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ**} [لقمان: ٢٠]، ومن الطاقات التي لا نعرفها في السماوات والأرض، طاقة الكائنات الموجودة في الكون وما بثه الله فيه من دابة، والكائنات اللامادية والجن والملائكة وروح القدس والعقل والقلب والروح في الإنسان... وغيرها.

ولذلك يخبرنا القرآن عن " الله " الذي خلق الوجود أنه يعلم كل شيء عمن وعما خلق{**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**} [الملك: ١٤]، ذلك أن العلم بكل تفاصيل ودقائق المصنوع أو المخلوق هو لازم من لزوم قدرة الصانع أو الخالق الذي ينسب إليه الشيء المصنوع أو المخلوق ذاته، كما أن المتابعة أو التحكم يقوم بهما أساساً أو يتولى أمرهما الصانع نفسه من خلال " القيومية "{**صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**} [النمل: ٨٨].

إذا كان الله سبحانه متجلياً في الظاهر " المادة "، وفي الباطن " الطاقة " مع كونه الأول الذي لا بداية له " لا يستحدث " والآخر

(١) ومنها الجاذبية والحركية أي الناشئة عن الحركة، والحرارية والمغناطيسية والكهربائية والكيماوية والإشعاعية والشمسية والنووية وطاقة الكتلة وطاقات الرياح والفحم والبترول والصوت وغيرها.

الذي لا نهاية له " لا يفنى " فإن معلوماتنا المتزايدة عن الطبيعة المادية والأحياء - رغم محدوديتها - تعطينا فكرتنا عن الله الذي نؤمن بوجوده متصفاً بقدرته وقوته، ونحتاج إليه في وجودنا المادي الروحي ذاته فيما نتكون منه من جسد ونفس وروح هي مصدر العقل، وفيما تحتاجه فسيولوجيتنا ذاتها المتصلة بالجسد وبالنفس وبالروح، ويمكننا أن نقرر مطمئنين أن معلوماتنا عن طاقة النفس والروح والعقل ما زالت محدودة وغير كاملة رغم التقدم العلمي والتكنولوجي الكبير في مجال المادة في الطبيعة الكونية أي الفيزياء والرياضيات أساساً؛ لذلك يخبرنا القرآن**{وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً}** [الإسراء: ٨٥]، فنحن نعلم الآن أننا نعيش في كون ذي أبعاد عديدة منها أربعة أبعاد " الطول والعرض والارتفاع مضافاً إليها الزمن "، كما نعم الآن أن هناك من الظواهر الوسيطية " الوساطة " [١] ما يجعلنا نعتقد أن هناك أبعاداً أخرى، على الأقل روحية، لا زلنا لا نعلم عنها شيئاً، وإنما نلحظ دلائل وجودها من خلال القدرات الوساطية لدى كثير من الأشخاص وهو ما يعبر عنه علماء اليوم أنه ما فوق أو وراء الطاقة "Hyper Energy " أو الطاقة المفرطة، فهناك نوع من العقل يسيطر على المادة عن طريق الإرادة يسميه العلماء " Phsycokenesis "، كما أن هناك أبعاداً غير الأبعاد المعروفة لنا يسميها العلماء بالأبعاد العليا " Higher Dimensions " فيما يعتبر ما وراء أو ما فوق الفضاء " Hyper Space ".

* * *

(١) الوسيط: هو شخص له القدرة على إيجاد اتصال بين العالم المادي والعالم الروحي.

خلق الحياة

الحياة، التي خلقت في الكائنات الحية، ذات صلة وثيقة بالعمليات الطبيعية التي تخضع لعمليات تغيير، والطبيعة ذات صلة وثيقة بالإلوهية لأن الطبيعة من صنع الإله ومظهر لظهور أسمائه وصفاته، وبالتالي هي إحدى الوسائل المؤدية إلى معرفته سبحانه إلى جانب الهيكل الإنساني والنفس الإنسانية.

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل: (أثبت العلم أن الإنسان يتكون في أصله من خلية واحدة، هذه الخلية واحدة، هذه الخلية تكون الصلب من العظام ونصف الصلب من الغضاريف والرخو من اللحم، وهي نفسها تكون اللزج من الأنسجة، والسائل من الدماء وتكون نفسها طبقات الجلد الرقيقة وأهداب العين الدقيقة، وهذه الخلية يتكون منها زيادة على ذلك، السمع والبصر والفؤاد، وينشأ منها الطويل والقصير، والأبيض والأسود على السواء، وهذه الخلية عبارة عن حياة معقدة أمكن للعلم أن يكتشف مكوناتها وتراكيبها، وأن يقيس حركتها وتحليل مادتها وطريقة انقسامها، أما سر الحياة فيها فهو ما وقف العلم والعلماء عنده يعترفون بأن هنا " الله ".

ويقول أيضاً تحت عنوان " الخلية الحية ": ما الحياة؟ هل هي شيء له حجم؟ أم خليط بين حجم ووزن؟ أم هي بين الحجم والوزن؟ أم هي أثير؟ تلك الكلمة التي أطلقت على ما في الفضاء مما لابد من وجوده إذ لا يمكن أن يكون فراغاً[١]، وإن العلماء بما توصلوا إليه من اكتشافات وما استحدثوه من آلات وما كشوفه من علوم ليحنون الرؤوس إجلالاً ويظهرون عجزهم احتراماً لذلك المجهول الذي يطلق عليه الحياة. فالحياة هي الأثر الذي يظهر في الخلية الحية التي

(١) أصبح الرأي بوجود الأثير، رأياً غير مقبول في الأوساط العلمية الآن.

لا تكاد ترى إلا بالمجاهر المكبرة[١] فهذه النقطة تناهت في الصغر تحتوي على مادة لزجة تسمى " بروتوبلازم " وأثر الحياة فيها أنها تتحرك، فتأخذ من الجو ثاني أكسيد الكربون في وجود الشمس، وتفصل الهيدروجين من الماء، فتكون بذلك مركبات كيماوية هي غذاؤها الذي تنمو به وتنقسم.

وقد حاول العلماء ملايين المرات، خلق البروتوبلازم الحي باتحاد مختلف تراكيب الكربون والماء والضوء، وتحت مختلف الظروف الطبيعية والكيماوية، والصناعية، ولكنهم أخفقوا وازدادوا إيماناً بوجود خالق لهذه الخلية، التي تعتبر وحدة الكائن الحي، وأن الخلق لا يمكنهم خلق أنفسهم).. انتهى.

إن الواقع الذي يجب أن نسلم به - كما يقول البروفيسور " رسل تشارلز آرنست ": " هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بالفشل التام وبخذلان ذريع، ومع ذلك؛ فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المطلع، على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية، وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة، فهذا شأنه وحده، ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق هذه الأشياء ودبرها ".

كما أن العلوم، كما يقول البروفيسور " أدوين فاست " - عالم

(١) يرى العلماء أنه من المحتمل أن تحتوي أصغر الخلايا التي يمكن رؤيتها على حوالي ربع مليون جزئ بروتيني وهو الذي يحتوي بدوره - في المتوسط - على حوالي ٢٠.٠٠٠ ذرة، وبذلك تكون أصغر الخلايا محتوية على ما يقرب من خمسة آلاف مليون ذرة متحدة في جزئيات معقدة، ولا يزيد قطر الخلية ١/١٠٠ من الملليمتر على أرجح الفروض النظرية.

الطبيعة والمشتغل حالياً بالطاقة الذرية: " عندما تحاول أن تفسر لنا منشأ الكون، نجدها تبين لنا على ضوء ما لدينا من المعلومات عن الطبيعة الكونية، كيف تتفاعل الجزئيات الأساسية لكي تكون لنا جميع العناصر المعروفة، فجميع العناصر التي يتألف منها الكون تبدأ بـ " بروتونات " لها خواص معينة وقوة جاذبة تجعلها ينضم بعضها إلى بعض، أما كيف نشأت هذه البروتونات ذاتها، ولماذا كان لها هذه الصفات بالذات؛ فإن ذلك ما لم تستطع أن تقدم له العلوم شرحاً أو بياناً، ومهما بالغنا في تحليل الأشياء أو ردها إلى أصولها الأولى فلابد أن نصل في نهاية المطاف إلى ضرورة وجود قوانين طبيعية تخضع لها ذرات الكون ويعد ذلك في حد ذاته دليلاً على وجود إله قادر ومدبر هو الذي قدر لكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون أن تسير في طريقها المرسوم.

وقد خلق الله الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات وجعل لها خواصها المعينة فرسم لها بذلك سلوكها وأقدارها، وعندما تحاول عقولنا المحدودة أن ترتد إلى الوراء وتبحث عن ساعة الصفر في تاريخ هذا الكون، نجدها تسلم ضمناً بأن لهذا الكون بداية ولحظة معينة نشأت فيها الذرات الدقيقة التي تتألف منها مادة هذا الكون، ولابد أن تكون خواص هذه الجزئيات التي تحدد سلوكها، قد ظهرت معها في الوقت نفسه، ومن المنطق السليم أن يكون السبب الأول الذي أوجد هذه الجزئيات هو الذي أودع صفاتها التي تحدد سلوكها، ولابد أن نسلم بأن قدرة الخالق وتدبيره وإحكامه تفوق قدرة وتدبير الإنسان بل البشر جميعاً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وإن أذكى العلماء لا يستطيعون إلا أن يعترفوا بأن الإنسان لا يزال حتى اليوم في مهد معرفته بأسرار هذا الكون وظواهره ".. انتهى.

يقول العلماء الملحدون إن الحياة قد نشأت في البيئة المائية بفعل

الظروف والتفاعلات الكيمائية والبيولوجية وحدها، ولكن عند العلماء المؤمنين فإن ذلك لا ينفي، بل هو يؤكد، وجود إرادة وراء نشأة الحياة وفقاً لهذه الظروف والتفاعلات التي تكون في حقيقة الأمر الأسلوب أو الطريقة أو الوسيلة التي ينجز بها القانون أو النظام أو السبب، ينجز الفعل أو العمل أو الصنع وفقاً للإرادة في خلق الحياة أو المخلوقات الحية، أما الحركة التفاعلية أو النشاط والظروف المواتية فكلهم يعبرون عن الأمر الإلهي " كن فيكون " بفاعلية وإيجابية ومسيرة القانون أو النظام أو السبب عن طريق تأثير طاقة أعلى وأقوى وخلاقة وهي طاقة الأسماء الحسنى التي يجمعها الاسم الأعظم " الله ".

إن كل فعل لابد له من قوة وطاقة تدفعه للحركة ولابد له أيضاً من إرادة تدفعه للحركة وأفعال الله - ومنها خلق الحياة - ناتجة عن إرادة يتصف بها خالق الحياة وهاديها بالتخصص والعمل الجماعي والتعايش المشترك، ومتى كانت هناك إرادة كانت هناك غاية أو هدف أو قصد من الفعل الذي هو إيجاد الحياة وإنشاؤها، وقد عبر القرآن عن هذه الإرادة الإلهية المنشئة للحياة في الخلية وصلتها بالماء والعرش في الآيات الثلاث التالية:

١- **{وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** [الأنبياء: ٣٠].
٢- **{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ}** [هود: ٧].
٣- **{الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى}** [طه: ٥].

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز **{إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ العَالَمِينَ}** [الأعراف: ٥٤]، ومثله في سورة يونس والرعد والحديد الأمر الذي يفيد أن الاستواء على العرش كان

بعد خلق السماوات والأرض واستقرارهما عبر الزمان الممتد (حيث كلمة " ثم " في الآية تفيد التعقيب مع التراخي)، على النحو الذي مهد لخلق الحياة وترقيها في كوكب الأرض.

الحياة في نواة الخلية:

ونحن نعرف الآن من خلال العلوم الحديثة أن صورة الحياة الأولى ظهرت في نواة الخلية، وإن الحياة في نواة الخلية خلقت في الماء ومن الماء في بيئة كوكب الأرض، إن الخلية تركيب معقد بصورة مذهلة للغاية، وهي وحدة الحياة في كوكب الأرض التي تستمد نشاطاتها من الطاقة الشمسية. لقد عجز العلماء عن خلق الحياة المستقرة والمستمرة التطور في الخلية كيماوياً لأن الحياة في نواة الخلية هي من خلق الرحمن وحده دون شريك[(١)]{**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**} [طه: ٧]. سر قوله تعالى{**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياًّ مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**} [الإسراء: ١١٠].

وتظل مع ذلك كيفية الاستواء مجهولة، أما معنى الاستواء في اللغة فواحد من أربعة هي: استقر - علا - ارتفع - صعد - ونحن نرجح معنى الاستقرار على النحو الذي يليق بكمال تنزيه الله سبحانه وتعالى بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل ولا حلول ولا احتواء ولا تجسيم ولا تحييز ولا تحديد ولا تعطيل مع التنزيه الكامل لذاته سبحانه وأسمائه وصفاته العلى لأنه سبحانه وتعالى ليس في شيء وليس من شيء وليس على شيء وليس كمثله شيء.[(٢)] وعلى كل حال فإن عرش الله يجب أن يفهم بعيداً عما تذهب إليه أوهام العامة أو تخيلات الذين لا يعلمون، وإلى ذلك ذهب الراغب الأصفهاني

(١) الرحمن هو المنعم بجلائل النعم كنعمة الحياة ونعمة العافية.

(٢) ويفسر الإمام أبو العزائم ذلك بأنه سبحانه لو كان على شيء كان محمولاً ولو كان في شيء كان محصوراً ولو كان من شيء كان محدثاً ولو كان في شيء كان متحيزاً.

عليه رحمة الله.

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - في تفسير قوله تعالى{**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**} الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به من الإيمان، والجحود به كفر.

وعن مالك - رضي الله عنه - الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وقد درج سلف الأمة على ترك التعرض لمعاني المتشابه - كما قال إمام الحرمين في الرسالة النظامية - وممن ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم ومن تبعهما وكثير من المفسرين كالبغوي والرازي والجلالين والألوسي وغيرهم. وذهبت طائفة من أهل السنة إلى تأويل هذه الآيات والأحاديث الواردة في الصفات بما يليق بجلال الله تعالى، مع تنزيهه عن حقيقتها، وهو مذهب الخلف، لأن حمل الألفاظ على ظاهرها محال على الله كما قال الإمام الرازي. [(١)]

وقد ذكر العلماء لوقوع المتشابه في القرآن فوائد:

فهي في المتشابه الذي يمكن علمه: أنه يوجب مزيد من المشقة في الوصول إلى السداد وهي توجب مزيد الثواب ومنها: ظهور التفاضل وتفاوت درجات الخلق في معرفة القرآن، إذ لو أن القرآن كان كله محكم لا يحتاج إلى تأويل ونظر لاستوت منازل الخلق فيه ولم يظهر فضل العالم على غيره ومنها في المتشابه الذي لا يمكن علمه: ابتلاء العباد بالوقوف من جهة التلاوة وإقامة الحجة عليهم ولأنه لما نزل بلسانهم وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم دل على أنه منزل من عند الله تعالى.

---

(١) راجع تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف " صفوة البيان لمعاني القرآن ".

وفي لغة العلم الإنساني فإن مفاهيم الصفات التي تتصل بها الطاقة في الطبيعة تدل على معاني متعددة وصفات متعددة، وتختلف كلية عن مفاهيم الصفات التي تتصل بالأسماء الحسنى التي يجمعها اسم الجلالة الأعظم (الله) التي يعبر تعددها الظاهري عن " الوسعة " و " الإحاطة " الإلهية، بحيث تعكس كلها وحدة واحدة يجمعها اسم الجلالة الأعظم (الله) الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

الخلية الحية:

إن تعقيد بناء الخلية الحية ينفي إمكانية إيجادها بغير تدبير حكيم مسبق، وتعقيد بناء العضيات المختلفة في الخلية الحية وبناء الشفرة الوراثية، ينفي ذلك نفياً مطلقاً، وكل نشاط طبيعي أو كيميائي أو حيوي وكل منتج عن تلك الأنشطة يؤكد على حقيقة الخلق، وعلى رعاية الخالق (سبحانه وتعالى) فالشفرة الوراثية سجل محكم من المعلومات والأوامر المنظمة تنظيماً مذهلاً، والتي تنفذ بدقة مبهرة على مستوى أدق التفاصيل، مما يعطي الخلية الحية في أبسط صورها مستوى من عظمة التصميم، وتعقيد البناء ومستوى التنفيذ لا يمكن أن يصل إليه أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من ذلك بعد فيستحيل على أكثر التقنيات تقدماً اليوم إنتاج واحدة من أبسط الخلايا الحية على الرغم من معرفتنا الكاملة بتركيبها الكيميائي الدقيق.

فالمعلومات الخاصة بكيفية عمل الخلية، وكذلك صفات الكائن الحي التي سيتم تمريرها إلى الأجيال التالية، تكون محمولة على الجينات التي تتراص بجوار بعضها لتُكوِّن كروموسومات نواة الخلية. وتوجد هذه المعلومات في صورة رمزية، تستخدم أربعة أحرف[١] تتراص بترتيب رياضي مختلف، لتعبر عن جميع

(١) هذه الأحرف الأربعة هي ٤ مركبات كيميائية، من مجموعة تُعرف بـ " النيكلوتايدات

المعلومات التي تحملها نواة الخلية. وتشكل هذه المركبات الكيميائية، الحمض النووي الشهير الذي تتكون منه الكروموسومات، والمعروف باسم DNA.

ويتم نقل المعلومات من الجينات الموجودة بنواة الخلية إلى أجسام موجودة في السائل الخلوي خارج النواة، تُعرف باسم الريبوزومات، ويقوم بنقل المعلومات حمض نووي آخر يعرف باسم RNA (يقابل أسلاك الكهرباء التي تنقل الشفرة في نظام التلغراف).

وبناءً على المعلومات التي حملها الرنا من الدنا إلى الريبوزومات، تقوم الأخيرة بنقل الشفرة وفهم محتواها = Translation Decoding، وتكون الأحماض الأمينية التي يتحد بعضها ببعض لتكوين البروتينات التي تقوم بمعظم وظائف الخلية.

ليس هذا فقط بل إن لبنة الخلية الحية وهي الجزيء البروتيني عبارة عن بناء معقد من جزئيات الأحماض الأمينية المحددة التي تبلغ العشرين، والمرتبة ترتيباً معيناً، والمرتبطة مع بعضها البعض بروابط كيميائية محددة، في تتابعات خاصة، وينسب مقدرة بدقة فائقة، ولارتباط تلك الأحماض الأمينية برابطة واحدة هي الرابطة الببتيدية (Pep - tide Bond) فإن البروتينات تعرف باسم عديدة الببتيدات (Polypeptides) وقد يشترك عدد كبير من مختلف الأحماض الأمينية في تكوين السلسلة الببتيدية للبروتين وهذا لا يمكن أن يتم بمحض الصدفة أبداً؛ وذلك لأن جميع البروتينات في أجساد كل الكائنات الحية مبنية من العشرين نوعاً المحددة من أنواع الأحماض الأمينية، وكلها من نموذج واحد يعرف باسم " نموذج أ " (Alpha Type)، كلها مرتبطة ببعضها البعض برابطة محددة هي الرابطة الببتيدية، وأبسط جزئ بروتيني معروف يتكون من خمسين

." Nucleotides

جزيئاً من جزيئات الأحماض الأمينية العشرين المحددة، وبعض الجزيئات البروتينية مكون من آلاف الجزيئات من الأحماض الأمينية، وجميع هذه الضوابط والقيود - وغيرها كثير - تجعل احتمال تكون جزئ بروتيني واحد بمحض الصدفة من أكبر المستحيلات.

فإذا أضفنا إلى ذلك تعقيد بناء جزئ الحمض الأميني نفسه الذي يتكون من ستة عناصر أساسية هي: الكربون، الإيدروجين، الأكسجين، النيتروجين، والكبريت والفسفور، وأن مجرد اختيار تلك العناصر الستة من بين أكثر من مائة عنصر معروفة لنا بمحض الصدفة يجعل الأمر أشد استحالة ويزيد الأمر تعقيداً. أن الذرات تترتب في الأحماض الأمينية ترتيباً يسارياً في أجساد جميع الكائنات الحية، ولكن بمجرد موت الكائن الحي فإنها تعيد ترتيب ذاتها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة مما يعين على تحديد لحظة وفاة الكائن الحي بحساب نسبة الترتيب اليميني إلى اليساري في جزئيات الأحماض الأمينية في أية فضلة تبقى عن ذلك الكائن الحي.

ليس هذا فقط بل إن جزئيات الأحماض الأمينية تترتب في داخل الجزئيات البروتينية المكونة للخلية الحية ترتيباً يسارياً كذلك في جميع الأحياء، بينما تترتب الذرات في النويدات (Nucleotides) ترتيباً يمينياً والنويدات هي الحروف التي تكتب بها الشفرة الوراثية (DNACODES).

وإذا أضفنا إلى كل ذلك إحكام بناء الخلية الحية على ضآلة أبعادها فإن أية إمكانية للعشوائية أو الصدفة تنتفي تماماً، فالخلية الحية لها جدار رقيق من غشاء حي في كل من الإنسان والحيوان يتبادل الغذاء والنفايات والأكسيجين مع الخلايا المجاورة، ولها جدار من غشاء سميك غير حي في النباتات، والخلية لها السائل الخلوي

الذي يتكون أساساً من البروتينات، والدهنيات، والسكريات، والعديد من العناصر الذاتية، ويسبح في هذا السائل الخلوي العديد من الصبغات، والنواة التي لها جدار حي وتحتوي على الشفرة الوراثية المحمولة على عدد من الصبغيات المحدد لكل نوع من أنواع الحياة، وتتكون الصبغيات من جزئيات الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسيجين، وبالنواة كذلك والحمض النووي الريبي المراسل، والبروتينات (ومنها الهرمونات والانزيمات)، وغيرها من المركبات الكيميائية المرتبة ترتيباً محكماً وبنسب محددة، واختيار دقيق، وتناسق عجيب ليقوم كل منها بدوره على أكمل وجه.

وللخلية الحية مصادرها المختلفة من الطاقة، ومصانعها، ومختبراتها، ومحطات التكرير الخاصة بكل منتج تنتجه، ووسائل الانتقال المحددة بداخلها، ولها شفرة وراثية شديدة التعقيد يضم الصبغي الواحد من بين ٤٦ صبغياً في الخلية الواحدة من خلايا جسم الإنسان ١٨.٦ بليون قاعدة كيميائية وكل ذلك ينفي الصدفة، ويؤكد الخلق المتقن، والتدبير الحكيم الذي لا يقوى عليهما إلا رب العالمين{**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**} [الإسراء: ٤٢]؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده هو خالق الحياة وخالق الأحياء وخالق كل شيء{**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**} [الزمر: ٦٢].

وتعتبر نواة الخلية أكبر جسيمات الخلية حجماً، وأرفعها قدراً لأنها تحكم كل أنشطة الخلية وتنظمها وتنسق بينها، وهي تحوي عدداً محدداً من الجسيمات الصبغية " الصبغيات " وعددها في خلية الكائن الحي هو الذي يحدد النوع، وهذه الصبغيات تحمل المورثات Genes التي تحدد الصفات الوراثية للخلية وللكائن المبني جسده من مثل تلك الخلية ولنسله من بعده بصفة دائمة ومستمرة إلى ما شاء

الله.

إن هذا التعقيد المذهل في بناء الخلية الحية وفي الوظائف التي تقوم بها يلقي مزيداً من الضوء على حقيقة استقرار الحياة فيها التي هي من خلق الرحمن وحده وظهور قدرته سبحانه وحكمته وعلمه وتدبيره وإبداع صنعه - سبحانه - وهذا ما يفسر تحويل جزء من الغذاء الواصل إلى الخلية إلى " طاقة " تسمح بحركتها وتكامل بنيتها واستمرار أداء وظائفها التخصصية.

إن جسد الإنسان بالغ يضم ترليوناً من الخلايا في المتوسط، وهي خلايا متخصصة تنظمها أنسجة متخصصة في أعضاء متخصصة في نظم متخصصة تعمل جميعها في توافق معجز لخدمة ذلك الجسد الإنساني وتنتفي بل تستحيل معه العشوائية أو العفوية أو الصدفة، بل على العكس تثبت جميعها الهدفية والقصد في الخلق الذي أبدعه الله خالق كل شيء، وخالق الإنسان ومسويه ومعدله ونافخ الروح فيه، والروح نور، أي طاقة، ما زالت معلوماتنا عنها محدودة وقليلة، يقول الدكتور زغلول النجار: " إن النقلة من طين الأرض إلى الخلية الحية لا يمكن لها أن تتم بغير قدرة الخالق البارئ المصور، وقد وصف الله سبحانه وتعالى ذلك في القرآن بقوله{**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**} [السجدة: ٧ - ٩].

إننا يمكنا أن نقول إن هناك إرادة إلهية عبر عنها أمر إلهي (كن فيكون) متمثلاً في القدر والقضاء، ظهر في سنن وقوانين ونظم وأسباب نشطت عبر زمان طويل أدى إلى نشوء نعمة من أجل النعم وهي الحياة في الدنيا، في البيئة المائية في الأرض ومنها، أو في بيئة السائل الهلامي المحيط بنواة الخلية بهدف وقصد أوضحه القرآن في

الآية التالية:{**الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ**} [الملك: ٢] والآية التالية:{**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**} [هود: ٧]، بما يعني - في فهمنا والله أعلم - وجود علاقة بين العرش وبين الخلية التي استقرت (الاستواء) الحياة في نواتها بإرادة وقدرة الرحمن خالق الحياة سبحانه وتعالى{**الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**} [طه: ٥]، وينتفي تماماً ما قد يتوهمه أو يتخيله العامة من الناس من أن الرحمن محمول على العرش المجسم في مكان في السماء لأنه سبحانه وتعالى منزه عن التجسيم والزمان والمكان وكل بعد آخر قد يكون والله وحده أعلم.

ويوجد في الخلية ما أسماه العلماء " بايرون " وهو مكون اكتشفه العلماء مؤخراً فقط، إذا انفصل عن الخلية توقف نشاطها تماماً مما يؤكد أن حدود علومنا المعاصرة رغم اتساعها الهائل ليست حدوداً نهائية فستستجد عبرها معلومات لا نعرفها الآن ستلقي مزيداً من الضوء على معاني آيات القرآن فيما يتعلق بالإنسان والطبيعة والأحياء وتؤكد سمة التراكم التي يتصف بها العلم الإنساني عبر العصور ليظل الله - سبحانه وتعالى - فوق كل ذي علم عليم، وبتعبير آخر، لتظل آيات القرآن الكريم حاملة أسرار الحقيقة في قممها السامية كما تتجلى في الكون وكل الكائنات وليتجدد مع ذلك الفهم الإنساني لحقائقها{**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**} [يوسف: ٧٦].

إن ما (يكون) في الوجود بفعل الأمر الإلهي (كن) إنما (يكون) خارج البعد الزمني بالنسبة لله سبحانه وتعالى أي في لا زمن أو صفر زمن{**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} [النحل: ٧٧]. بينما هو (يكون) بالنسبة للإنسان وغير الإنسان داخل البعد الزمني ويقدر بالعد والحساب{**وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**} [الإسراء: ١٢].

وعلى ذلك تكون الحياة قد خلقت في نواة الخلية بفعل الأمر الإلهي (كن فيكون) وذلك خارج البعد الزمني بالنسبة لله سبحانه وتعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى في الأحدية فوق الزمان والمكان، سرمدي كان قبل الزمان أول بلا بداية، وبعد الزمان باق آخر بلا نهاية، حيث لم يوجد الزمان نفسه إلا مع بداية نشأة الكون. أما بالنسبة للإنسان وغير الإنسان فذلك كان بعد خلق السماوات والأرض في ستة أيام أي داخل البعد الزمني كما تخبرنا الآية ٥٤ من سورة الأعراف. أما قبل خلق الكون والحياة والإنسان وسائر المخلوقات فيوضحه لنا النبي ﷺ في حديثه " كان الله ولم يكن شيء غيره " [(١)] أي كان الله سبحانه وتعالى في أحديته منزه في كماله مدركاً لذاته ولا شيء غيره معه**{شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ}** [آل عمران: ١٨] ويخبرنا الفيزيائي إدوارد ترايون[(٢)] (Edward Tryon) " إن طاقة الكون في بدايته كانت صفراً وهذا مفهوم لأن الطاقة كانت محصورة في ذات الله سبحانه وتعالى، وفي أسمائه الحسنى، قديمة غير مخلوقة ولا محدثة، باقية ودائمة.

* * *

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، والنسائي في السنن الكبرى، والحاكم في المستدرك.

(٢) أستاذ الفيزياء في جامعة هانتر بنيويورك، متخصص في نظرية النسبية والكم.

العلم الطبيعي

العلم كله في الكون كله، والشيء المخلوق عبارة عن معلومات مخزونة في طبيعته، أو ماهيته، أو ما ينتج عنه من آثار، أو تصرفات أو حركات، أو نمو أو توالد أو تولد أو أوصاف أو أقوال وأصوات، أو أحداث أو شؤون أو خواص...الخ.

وذلك هو نفسه علم الله المحيط، وهو يعني أن صانع الشيء يعلم كل دقائق، وتفاصيل، وخبايا، وتصرفات ما صنع.. أو أن خالق الشيء يعلم كل شيء عن الشيء{**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**} [الملك: ١٤]، وكمال الصنعة هو من كمال العلم الذي هو من كمال الاسم.. وفي الصنعة مظاهر جمال مدهش، ومظاهر جلال محير، يرجعان إلى مقتضي الاسم الفاعل، أو المتجلى من أسماء الله الحسنى، وهذا يعني إحاطة الله - تبارك وتعالى - وهو الاسم الجامع للأسماء الحسنى كلها ولا يسمى به غير الله، بمعنى أن مجموع الأسماء والصفات والأفعال داخلة في إطار الاسم " الله "، الاسم الجامع لأسماء وصفات الإله المعبود في الأديان، والذي له مسميات أخرى حسب اختلاف اللغات تدل جميعها على " الذات " الإلهي.

والعلم المخزون في الكون وكل كائناته يماثل تماماً - وبكل الدقائق والتفاصيل - العلم عند الله - تبارك وتعالى - فالعلم الإلهي شامل، ومحيط، وكامل، ويتعلق بالكون كله والكائنات المخلوقة كلها، حتى قبل خلقها أو إيجادها من العدم على غير مثال سابق خاصة إذا علمنا أن الله ليس مقيداً بقيود، أو أبعاد سواء كانت زمان، أو مكان أو غيرهما؛ لأنه الأول الأزلي، والآخر الأبدي، كما أنه الظاهر الذي ليس فوقه شيء وهو الباطن الذي ليس دونه شيء، على العكس من سائر المخلوقات، والإنسان بالذات الذي هو مقيد بالأبعاد في الطبيعة ويحتاج إلى دراسة السرعات الفائقة والحركة النسبية لكي يزداد علماً

بقوانين الطبيعة، ويتعامل مع حقائق الأشياء يمكن من خلالها إدراك معلومات أكثر دقة وصحة تظل مع ذلك نسبية وغير مطلقة، وهذا ينطبق على تعلمنا للأسماء الحسنى كلها، فإن معلوماتنا هي على قدر حظنا من فهم الأسماء في حدودنا، بمعنى أننا نعلم من معاني الأسماء والصفات مما تتوصل إليه معارفنا من خلال الكون، وقدرات العقل والروح، والكائنات المخلوقة، والتجربة الحياتية وواقعها خاصة بالنسبة للإنسان.

والإنسان يتوصل إلى شيء من هذه المعارف عن طريق الطبيعة الكونية بكل كائناتها، وقواها، وموادها الذرية وعن طريق طبيعة الكائن الإنساني نفسه وخلقته، وهو يتوصل إلى ذلك بطرق وأساليب مختلفة تتطور وتترقى بتطور المدنيات، والحضارات المبنية على المعارف والعلوم واكتشافها الجديد من العلم المخزون في الطبيعة وفي الإنسان وكذلك بمسالك الرياضة الروحية التي توفرها العبادة وما ينتج عنها من كشف أو إلهام أو إيحاء أو فهم، وما تحويه العوالم الروحية من قدرات.

وعند ذلك يقال: إن الإنسان قد أحاط بشيء من العلم الذي يعلمه الله سبحانه ولكن دون أن يتساوى مع علم الله كما يعلمه هو سبحانه، والموجود بصورة محيطة وشاملة عند الله تبارك وتعالى**{إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً}** [طه: ٩٨].

والإنسان مهما طال عمره عبر الأجيال لا يمكنه أن يحيط بعلمه بالكون كله والكائنات فيه؛ لأن هناك قدراً هائلاً من غير المعلوم يبدو أنه يتزايد ويكثر كلما ازداد علم الإنسان ذاته، ويظل الله - تبارك وتعالى - وحده هو مالك العلم الشامل، والمحيط**{وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}** [يوسف: ٧٦].

أما الإنسان فإنه كما قلنا يتوصل إلى قدر معين من العلم الإلهي

وهو القدر الذي يشاء الله أن يعلمه الإنسان**{وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ}** [البقرة: ٢٥٥]، سواء بما شاء من العلم أو بما شاء من وسائل تحصيله، فهناك من علم الله ما لم يحيط به الإنسان أو غيره، والنتيجة أنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله من هذا العلم المجهول الذي يعلمه الله وبمشيئته فيما يحيطون به من العلم وما لا يحيطون**{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}** [يونس: ٣٩]. والعلم الذي يحيطون به هو علم ظاهر الحياة الدنيا**{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}** [الروم: ٧]، أي علوم الآخرة وما يكون فيها وما يمهد لها في الحياة الدنيا.

ويظل العلم المخزون في الكون " غيباً " لا يعلمه إلا الله، أو من يأذن له الله ويشاء بقدر محدد ومحدود، والمعلومات المخزونة في الطبيعة تحتاج لقارئ لها، كما تحتاج للأسباب لمعرفتها، وتعلمها، أياً كانت لغة، أو صورة، أو شكل القراءة سر قوله تعالى:**{اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}** [العلق: ١ - ٥].

والإنسان في طريق حصوله على المعلومات قد يعقل، وقد يفكر، وقد ينظر، وقد يرى، وقد يتأمل، وقد يدرك، وقد يستقرئ، وقد يستنتج وقد يقيس، وقد يعد، وقد يحصي، وقد يقرأ، وقد يكتب، وقد يصف، وقد يجرد، وقد يشبه، وقد يتصور، وقد يمثل، وقد يفترض، وقد يستنبط، وقد يقدر، وقد يختبر، وقد يسجل، وقد يعاين، وقد يبحث، وقد يعي، وقد يتنبأ، وقد يُلهم، وقد يوحى إليه، وقد يكشف، وقد يخطئ، وقد يصيب، وقد يجتهد، وقد يجرب، وقد يتريض - أي يستعمل علم الرياضيات - إلى غير ذلك من طرق الحصول على المعلومات بالقدر المتاح له أن يعلمه من العلم المحيط الشامل

المخزون في الطبيعة وفي كل كائناتها، والمعلوم للإله الواحد تبارك وتعالى بصورة شاملة ودقيقة تشمل الكليات والجزئيات حتى من قبل أن تكون، في كتاب القدر والقضاء**{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ}** [الأنعام: ٨٠].

إن الله - تبارك وتعالى - واحد أحد رغم تعدد الأسماء والصفات.. لأن الأسماء والصفات والأفعال وحدة متوحدة في الاسم الأعظم " الله ".. ولما كانت الأسماء والصفات والأفعال تلوح في مرائيها من المظاهر المخلوقة والشئون الحادثة فكذلك لابد أن تكون هذه المظاهر والشئون متوحدة هي الأخرى في جوهر طاقي واحد يستمد من الاسم الأعظم " الله " جل جلاله.. فإذا عرفنا أن الوجود، وكل موجود فيه هو في حقيقة أمره يرجع إلى نوع من أنواع القوى والطاقات فلابد أن يكون هناك مجال موحد يجمع بين هذه القوى والطاقات في وحدة تمثلها قوة، أو طاقة واحدة تكون أثراً من آثار وفاعلية الاسم " الله " - سبحانه وتعالى - ونحن نعلم أن القوى الرئيسية في الكون هي أربعة:

١- الجاذبية.

٢- الكهرومغناطيسية.

٣- القوى النووية الشديدة.

٤- القوى النووية الضعيفة.

وهذه القوى الأربعة لابد أن تكون مرتبطة فيها بينها(١)، وتعكس قوة واحدة تربطها جميعاً بحيث تعتبر هذه القوى الأربعة مظاهر متعددة لحقيقتها الواحدة التي تعكس بدورها الإله الواحد " الله " الذي

(١) حتى ولو لم يتوصل العلماء حتى الآن إلى وحدة هذه القوى الأربعة، وإنما وحدة اثنين منها فقط هي الكهرومغناطيسية والقوى النووية الضعيفة.

نعبده، وأسماء الله كلها حسنى في إطلاقها، وهي تنعكس في المخلوقات كلها، المعروف لنا منها، وغير المعروف، المنظور منها وغير المنظور، ومن هنا تكون معرفتنا النسبية بالإله الذي نعبده، فهذا الإله في ذاته المجهولة لنا له أسماء وصفات معلومة يكون إدراكنا لها من خلال تعلقها بآثارها الناتجة عنها والتي تمثلها كل المخلوقات في الكون.

ولذلك تحدثنا سورة النور في الآية ٣٥ أن{**الله نُورُ السماوات وَالأَرْضِ**}، أي أن الكون كله يرجع إلى الله من خلال الاسم " النور ".. والنور باعتباره اسم متعلق بالذات فهو قديم، وبذلك يكون علم الله بالكون علماً قديماً أي من قبل إيجاد الكون منذ الأولية بلا ابتداء، وحتى الآخرية بلا انتهاء.. لأن الله هو الأول والآخر وقد خلق الله الكون على غير مثال سبق، والكون في الحقيقة عبارة عن ذرات ذات شحنات كهربية، أي أنه يرجع في أصله إلى النور وموجاته وذبذباته.

* * *

الفصل الثامن

عود على بدء الطاقة في أسماء الله الحسنى

الفصل الثامن

عود على بدء الطاقة في أسماء الله الحسنى

الطاقة هي القدرة والقدرة الإلهية تتضمن إتيان فعل أو عمل أو صنع أو خلق، وبدونها لا شيء يستطيع العيش أو الحركة، أو هي صفة لكيفية تصرف الأشياء، واستخدام الطاقة يقترن دائماً بقوى بشكل أو بآخر بحيث يمكننا القول إن الطاقة تعبر عن القدرة والقوة، والله - سبحانه وتعالى - هو " القدير " وهو " القوي " وهو " المتين "[١]، وهو " القادر "، وبدون قدرته وقوته لا يمكن أن يحدث شيء في الكون " لا حول ولا قوة إلا بالله "؛ لأن طاقته وقوته هي مصدر كل الطاقات والقوى في الكون، وهي متصلة بالاسم " القدير " ومتعلقة بالقدرة.

والطاقة شيء غير ملموس أو محسوس، ليس لها طعم أو رائحة أو لون أو جسم ولكنها هي جوهر كل الكون وكل المخلوقات وكل الكائنات والطاقة في الطبيعة الكونية جعلها الله بحيث يمكن أن يستغلها الإنسان لصالحه وفي منفعته، وهو معنى التسخير، ولكن الإنسان يستغلها أحياناً للإضرار بالغير، فهي مسخرة له منذ البداية، ومع ذلك فإن القدر من الطاقة الذي يتعامل معه الإنسان جزء ضئيل جداً من مقدار مجموع الطاقة في الكون، والطاقة شيء غير معروف الكنه، لكنه محرك هذا الكون كامن فيه وسر حركة مكوناته، والطاقة - في اعتقادنا - هي أقصر طريق يوصلنا إلى معرفة الخالق المعبود بقراءة آثاره ومصنوعاته ومخلوقاته، وحركاتها وتصرفاتها وقواها المؤثرة الدالة جميعها على عظمة ربها وبارئها من خلال ملاحظة تجليات أسمائه وصفاته التي هي مصدر خلق وإيجاد كافة أنواع وأشكال وألوان وصور الطاقة في الكون كله وكائناته كلها بحيث

(١) الشديد القوة.

تكون الأسماء الحسنى - ويجمعها الاسم الله - هي مصدر الوجود ودليل ثبوته، ونحن لا نستطيع - لا في الحاضر ولا في المستقبل - أن نحدد ونحصي مقدار الطاقة الأسمائية المتوحدة في الاسم الجامع الأعظم " الله " سبحانه وتعالى وذلك لأسباب كثيرة أهمها:

١- إننا لا نستطيع أن نحدد أو نحصي مقدار الطاقة الموجودة في الكون الذي نعيش في أحد مجموعاته الشمسية.

٢- أننا لا ندري هل الكون الذي نعيش فيه هو الكون الوحيد الموجود أم أن هناك أكوان أخرى لا نعلمها{**أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ**} [يس: ٨١]. وهل ذلك بالتوازي أو بالتتالي.

٣- إن الطاقة الكونية جميعها تحتاج في بداية الإيجاد الكوني ذاته، إلى مصدر للطاقة أكبر منها وأعظم، غير محدود وغير متناهٍ يعبر عن نفسه وقدرته وقوته حتى تعرفه جميع الكائنات وتعبده وتوحده وتسبحه من خلال مختلف صور الطاقة والقوى المعروفة لنا وغير المعروفة بما يمكن معه تفسير الخلق الأول بفعل تجلي اسم الجلالة " الله " [١] بسر الأمر الإلهي المعبر عن الإرادة الإلهية في " كن " فيكون الخلق{**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**} [يس: ٨٢]، وكذلك تفسير الامتداد والاتساع المستمر لما في السماء أي " الكون بقدرة الله سبحانه وتعالى وفق مشيئته وعلمه وحكمته{**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**} [الذاريات: ٤٧]، بأيد يعني بقوة.

٤- هناك صور من الطاقة لا نعلمها وصور علمنا بها محدود وقليل " العقل - الروح - الملائكة - الجن - كائنات لا مادية - كائنات

(١) كما يتجلى أيضاً اسم الرب:{**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**} [الأعراف: ١٤٣] وتجليات سائر الأسماء الحسنى.

أخرى لا نعلمها.. "{**وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**} [النحل: ٨].

٥- إن الله - سبحانه وتعالى - ليس كمثله شيء وليس له كفواً أحد{**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**} [الشورى: ١١]،{**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**} [الإخلاص: ٣ - ٤].

إن الله - جل جلاله - هو الاسم الأعظم الجامع للأسماء الحسنى كلها، المعبود الأحد ذو الطاقة القديمة غير المخلوقة لأنه - سبحانه - لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ، وذو الطاقة الباقية لأنه سبحانه هو الأَوَّلُ وَالآخِرُ، وذو الطاقة الكمالية الكلية الشاملة لأنه - سبحانه - بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيط وعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فقدرته غير محدودة وغير متناهية ولا تماثلها أي قدرة أو قوة أخرى لأنه ليس كمثله شيء في كل شيء، تنزهت أسماؤه وتقدست ذاته.

إن كافة الكائنات التي خلقها الله - سبحانه وتعالى - تعيش في تكامل.. تكامل ناتج عن ذكاء واضح تتصرف وفقه المخلوقات تستمد من محكم تدبير وكمال حكمة خالقها معبرة عن قدرته، وقوته وعظمته.. لتجد في تصرفاتها التكاملية أسلوباً لإيجاد خلق أكمل.. هذا الذكاء الفطري هو الذي يسميه القرآن " الهدى " كما في قوله تعالى{**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**} [طه: ٥٠]، فالله - تبارك وتعالى - قيوم دائم يرعى المخلوقات كلها في الكون كله بحكمة وتدبير هي مهدية إليهما تجد فيهما تكاملها من أجل تحقيق ذاتها لتخرج مخلوقات أكثر كمالاً، أو أكثر قوة.. والله يدبر الكون بتدبير محكم يرى فيه كل التفاصيل من الكليات والجزئيات، ويعلم معه كل الدقائق ليتمحور حول ذاته افتقار كل ما سواه إليه.. وهو إقرار العجز لكل مخلوق.. يرنو إلى التقدم، والارتفاع، والاقتراب من الحقيقة الأولية الأخرية فيما تتجلى به من خلال معجزات الخليقة، وهذا هو فحوى الذكر في " العبادة " الذي تؤديه المخلوقات،{**وَمَا**

خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، وهي تسبح خالقها العظيم.

وفي خلال العبادة تعبر المخلوقات عن افتقارها لخالقها الأعظم، وأداء وظائفها التي هي مهدية لها بهدف الاتساق مع القانون العام الإلهي الذي يسير عليه الكون وكل مخلوقاته.. وهي في عملها تسبح ناطقة بمنطوقها اعترافاً بعظمة الخالق.. تريد أن ترضيه وتتقرب إليه.. وتتكامل من أجل الخير، والسعادة والحب، والتعاون نحو الكمال لعلها ترى قبساً من نوره.. أو تحظى بنظرة رحمة من جنابه العلي.. وذلك رقيها، وارتفاعها، وعروجها.. أفلاك تسبح فيها الكائنات.. ودوائر تعيش فيها المخلوقات.. ومراتب تصطف فيها الملائكة، وهي تعرج في سماء طلبها للقدرة العظمى التي صنعت وخلقت كل شيء.. سعادتها في العبادة، والتقرب بالسجود، ومعرفة خالق الوجود، والأرواح في عالمها ترجو وصلها برب الوجود.. وتسعى جاهدة للطاعة وهي تسبح، وتمجد بحمده.. في فقر إليه.. وسعى إليه.. وقبول منه لديه.. والجن والإنس يرون عظمته.. ويعلمون قدرته.. ويعبدون حضرته.. ويسبحون علوه وعظمته.. ويسجدون في افتقار وعجز واحتياج بين خوف ورجاء راهبون ساعة لقاءه.. ووقت حسابه.. والموقف بين يديه.. والقيامة بأهوالها لديه.. يوم يظهر الحق.. وتبين الحقيقة.. وقد زالت كل قوة إلا قوته.. وانمحت كل قدرة إلا قدرته.. منفرداً بالملك.. لأنه المالك الحقيقي الأوحد للملك**{لِّمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ}** [غافر: ١٦]،**{وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً}** [طه:١١١]، ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير.. جزاء على الخير والشر من خلال ومضة من ومضات ظهور الحق تبارك وتعالى معبراً عن ذاته في

أسمائه.. وعن أسمائه في أنواره وعن أنواره في خلقه وصنعته.. بالنسبة للعقل والروح.. مناط الحساب لكل من له حساب.

إحاطة الأسماء الحسنى بالوجود:

الله نور الوجود، والنور روح الوجود، والروح طاقة الوجود، والطاقة مظهر الوجود، والمظهر وجود الوجود، والوجود ظهور الموجود، والموجود واجب الوجود، والحب قوام الوجود، والعبودية غاية الوجود، والكلمة خلق الوجود، والقدرة إمساك الوجود، والقوة هيمنة على الوجود، والرحمن استمرار الوجود، والرحيم نجاة الوجود، والملك سلطان الوجود، والقدوس تجريد الوجود، والسلام أمن الوجود، والمؤمن إقرار الوجود، والمهيمن ترابط الوجود، والعزيز فردية الوجود، والجبار جلال الوجود، والمتكبر قهر الوجود، والخالق موجد الوجود، والبارئ تطور الوجود، والمصور تلون الوجود، والغفار الغفور توازن الوجود، والقهار والقاهر خضوع الوجود، والوهاب تقسيم الوجود، والرزاق خيرات الوجود، والفتاح كشف الوجود، والعليم معرفة الوجود، والقابض إحكام الوجود، والباسط تيسير الوجود، الخافض ذلة الوجود، والرافع عز الوجود، والمعز يسر قدر الوجود، والمذل عسر قدر الوجود، والسميع البصير رقيب الوجود، والحكم العدل قانون الوجود، واللطيف فضاء الوجود، والخبير قدر الوجود، والحليم ثبات الوجود، والعظيم كمال الوجود، والشكور طاعة الوجود، والعلي عبودية الوجود، والكبير المتعال ضآلة الوجود، والحسيب كفاية الوجود، والجليل رهبة الوجود، والكريم عطاء الوجود، والمجيب دعاء الوجود، والواسع إحاطة الوجود، والحكيم نظام الوجود، والودود صلة الوجود، والمجيد شرف الوجود، والباعث نشور الوجود، والشهيد رقيب الوجود، والحق سمة الوجود، والوكيل أصل الوجود،

والقوي المتين القدرة وشدة القوة في الوجود، والولي المحبة في الوجود، والحميد المحمود في الوجود، والمحصي العلم والإحاطة في الوجود، والمبدئ بدء إيجاد الوجود، والمعيد دورة الوجود، والمحيي إعمار الوجود، والمميت تأقيت الوجود، والحي حياة الوجود، والقيوم قوام الوجود، والواجد والماجد العوز في الوجود، والواحد الأحد تنزيه الموجود خالق الوجود، والصمد افتقار الوجود، والقادر المقتدر السيطرة على الوجود، والمقدم المؤخر قرب وبعد الوجود، والأول موجود قبل الوجود، والآخر موجود بعد الوجود، والظاهر آيات الوجود، والباطن سر الوجود، والمنتقم كوارث الوجود، والعفو صلاح الوجود، والرؤوف الرحمة في الوجود، ومالك الملك فرد الوجود، وذو الجلال والإكرام فيض الوجود، والمقسط عدالة الوجود، والجامع اجتماع الوجود، والغني فقر الوجود، والمغني افتقار الوجود، والمانع حفظ الوجود، والضار شر الوجود، والنافع خير الوجود، والنور حجاب الوجود، والهادي حركة الوجود، والبديع إعجاز الوجود، والباقي استمرار الوجود، والوارث فناء الوجود، والرشيد توجيه الوجود، والصبور إمهال الوجود.

* * *

خاتمــة

رسالة في التوحيد

خاتمة

وختاماً لرسالة التوحيد نقول إننا نؤمن بوجود قوة عليا ذات قدرة أو طاقة غير محدودة ولا نهائية، تتصف بهما ذات أحدية منزه عن كل وصف يدركه الحس، أو يتصوره الخيال، أو يسبق إليه الوهم، أو يختلج به ضمير أو يفضي به تفكير. ذات تتسمى بأسماء حسنى وصفات علا يتحقق فيهم الجمال والجلال والكمال، يجمع هذه الأسماء والصفات اسم أعظم علم يدل على الذات هو في اللغة العربية " الله " يتجلى في المظاهر والشؤون والقوى والطاقات في الطبيعة الحية وغير الحية، والله - سبحانه وتعالى - باعتباره علم على الذات - أحد لا شريك له ليس كمثله شيء في كل شيء، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، خلق الموت والحياة ليبلوا الناس أيهم أحسن عملاً، وهو يبعث الأموات ويحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم في الحياة الدنيا ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، وهو - سبحانه - المستحق وحده للعبادة، والجدير وحده بالطاعة، والمنفرد وحده بالحكم، والمشرع وحده بالدين، والدين قوامه الإسلام، جوهر كل الأديان السماوية{**مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**} [يوسف: ٤٠].

ومن هنا فإن المؤمنين بالله نسبتهم واحدة أياً كانت مسميات أديانهم أو أسماء رسل الله لهم، والمسلمين لله أمة واحدة ما دام إسلامهم لله وتسليمهم لله وإتباعهم قائم لهديه وهداه، بتوحيد لذاته، وطاعة لأمره، وتحقيق لعدله، واستمساكاً بالأخوة فيه، والمحبة من أجله، إنسانية فيها الناس سواسية لا فضل فيها لإنسان على آخر إلا بطهارة الضمير، وحسن الخلق، وحب الخير للناس، والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن**

ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

كما أننا يمكننا أن نقرر الحقائق التالية، ونحن مطمئنون إليها، من واقع العلوم والمعارف القرآنية والإنسانية:

١- الله هو خالق الوجود " الكون بكل كائناته " وما فيه من موجودات ومخلوقات وذلك بفاعلية وتأثير الأسماء والصفات الإلهية، والمخلوقات والأشياء والأحياء لم تخلق بالصدفة وإنما خلقت عن قصد وإرادة بأمر وتدبير وإبداع وحكمة وإتقان في الصنع، بفعل الله وحده سبحانه وتعالى الواحد الأحد.

٢- إمكان وجود صور حياة أخرى غير صورة حياتنا البشرية في أماكن غير كوكبنا في الكون الفسيح الممتد، وهو أمر وارد فيما يخبرنا به القرآن**{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}** [الشورى: ٢٩].

٣- إن الله - سبحانه وتعالى - يظهر " يتجلى " في الكون عن طريق معرفتنا بالتفاصيل الدقيقة التي تسيرها قوانين ونظم وأسباب وضعها الله في المخلوقات كما في الخلايا الحية وفي الذرات وفي المجرات وفي القوى والطاقات.

٤- إمكان خلق شيء من لا شيء وإمكان تحول شيء إلى لا شيء.

٥- القوانين الفيزيائية المعروفة لنا والمتصلة بالكون الفيزيقي لا تنطبق على القدرات العقلية والروحية الصرفة " الملائكة - روح القدس "، أو الكائنات الطاقية " الجن أو غيرها "، وتجارب علماء كاليفورنيا في مباحث الحقيقة المادية وحقيقة ما وراء المادة، تشير إلى احتمال وجود كائنات لا مادية Anti - Matter في بعض العوالم الأخرى، بما يمكن أن نقول معه إن الحقيقة المادية والحقيقة

الروحية المجردة لا تتناقضان عند العلم الحديث خلافاً لما جرى عليه العرف بين عامة الباحثين حتى عهد قريب.

٦- الطاقة النابعة من القدرة المتصلة بالأسماء والصفات الإلهية غير معروف كنهها وهي تقع خارج دائرة مدارك الحواس والعقول والأرواح، لأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، ولا شيء يماثله، بالضبط كما أن الأسماء والصفات الإلهية مغايرة تماماً ومختلفة كلية عن طبيعتها في الإنسان، وهي قديمة في تعلقها بالاسم الأعظم (الله).

٧- ذات الله - سبحانه وتعالى - لا تحل في شيء غيرها ولا يحل شيء غيرها فيها، كما أنها لا تتحد بشيء ولا يتحد شيء بها، فليس في ذات الله شيء من غيره، ولا في غيره شيء من ذاته، أي ليس في الذات إلا الذات وليس في الخلق إلا الخلق.

٨- الله خلق كل شيء فقدره تقديرا، وهداه بقصد وإرادة إلى غاية وهدف يسير نحوه بتخصص أو حركة أو نشاط أو تفاعل أو نمو أو تحول أو تغير أو تكاثر أو تولد أو توالد... الخ، كل شيء مخلوق هو مهدي إلى غايته بإرادة الله وأمره، ويظهر ذلك جلياً في خلق الإنسان من النطفة التي هي خلية حية، حتى اكتمال خلقه خلقاً آخر.

٩- من الممكن أن يكون الكون الذي نعيش في أحد مجموعاته الشمسية في كوكب الأرض فيها، من الممكن ألا يكون هو الكون الوحيد الذي خلقه الله - سبحانه وتعالى - بحيث يمكن أن تكون هناك أكوان أخرى ذات أبعاد مختلفة عن أبعاد كوننا ولا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ".(١)

(١) من أبرز علماء الكونيات المناصرين لفكرة الأكوان المتعددة " مارتين ريز " (Martin Rees) إلا أنه من الممكن - في فهمنا - أن يكون تعدد الأكوان " متتابعاً " وليس بالضرورة " متزامناً "، والله أعلى وأعلم.

١٠- من كل شيء خلق الله زوجين، وفي الماء ومن الماء خلق الله كل شيء حي، وتفيدنا العلوم الحديثة بدقة ما قرره القرآن من أن الظروف البيئية في الأرض قد هيئت لكي تمهد لاستقبال الحياة فيها.

١١- القوانين والنظم والأسباب والخطط التي بني عليها الكون وكل كائناته تدل على " الوحدة "، ولو كان في الكون آلهة غير الله، أو إله مع الله، لفسد النظام واختلت القوانين وتضاربت الأسباب وتعاكست المسيرة وفسدت الأمور.

١٢- يملك الإنسان - وربما غيره من الأحياء - قدرات هائلة من الطاقة العقلية والروحية ما زال علم الإنسان بالنسبة إليها قليلاً، كما أن قدرات الإنسان العقلية نابعة من النفخة الروحية الربانية وهذه القدرات لا زالت تحتاج لأبحاث وتجارب للغوص في أعماقها واكتشاف عالمها الذي ما زال فيه الكثير من المجهول للعلماء. ويذهب هاورد جاردنر Howard Gardner الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية بأن هناك ما يعرف بالذكاء الروحي والذكاء الوجودي وهما يهتمان بالقضايا الحسية والقضايا الأساسية للوجود الإنساني.

١٣- الطاقة الكهربائية المغناطيسية هي في فهمنا - وعلى الأرجح - في ضوء الحقائق التي كشفت عنها العلوم الحديثة - الشجرة المباركة الزيتونة اللاشرقية واللاغربية " شمالية - جنوبية " التي وردت في سورة النور كوقود للوعي العقلي والروحي المتصل بالحواس أو الزائد عليها، حيث في فهمنا المشكاة هي الجمجمة والزجاجة هي المخ والمصباح هو الوعي العقلي والروحي، والله أعلى وأعلم.

١٤- الله - سبحانه وتعالى - فعال لما يريد بكيفية عبر عنها القرآن بالكلمة، أي " كن فيكون " وليس للعقل الإنساني أن يقول لله -

سبحانه وتعالى - كيف يكون أو كيف يريد أو لماذا؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - فوق قدر مدارك العقول والأرواح ولا يُسأل عما يفعل بمعنى أنه لا تجري عليه الحوادث والأحكام كما تجري على الإنسان، فالعقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذي ليست له حدود.

١٥- خلق الله الموت والحياة وجعل إليه النشور أي أنه يبعث من في القبور لمواجهة موقف القيامة والحساب ثم الجزاء بالثواب أو العقاب نتيجة اتصال التكليف بالأمانة العقلية التي حملها الإنسان وكان معها حراً مختاراً، ويحيي الله العظام كما أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم وعلى كل شيء قدير.

١٦- النظم الاجتماعية الخاصة بحياة الإنسان والتي جاءت بها الأديان السماوية والهادية له في حياته الفردية والاجتماعية، هي أكمل النظم وأكثرها تحقيقاً لمصلحة الإنسان وصالحه وخيره واستقراره وسعادته وتوازن شخصيته بين متطلبات الجسد والنفس والعقل والروح، هذه النظم هي قاعدة التمدن والتحضر المبنيان على الإيمان والعمل الصالح والعلوم والمعارف الدائمة الترقي**{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً}** [المائدة: ٤٨].

١٧- وحدة الحق والحقيقة في كتاب الله، القرآني والكوني، بما يتحقق معه شهود وحدانية الله في شهود أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من خلال النور الإلهي " الهدي والهداية " والنور القرآني " الفرقان " والنور الكوني " الطبيعة " والنور المحمدي " السراج المنير ".

١٨- إن إرادة ومشيئة الله سبحانه وتعالى هي أن يكون الإنسان صاحب إرادة حرة، يختار - دون إكراه أو جبر - معتقداته وأفعاله وسلوكياته أي أن الله سبحانه قد اختار لنا أن نختار وشاء لنا أن نشاء

فتكون مشيئته الأعلى نافذة لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

١٩- أننا لسنا أبناء معصية آدم عليه السلام أو خطيئته الأولى التي تعبر في حقيقة الأمر عن العصيان وليست المعصية، فنحن أبناء آدم القابل للخطأ والنسيان وطغيان الغريزة لكنه صاحب العقل المُفكر والإرادة الحرة والمشيئة القادرة على اختيار العمل والسلوك والمعتقد، والتمييز بين الخير والشر حيث كل إنسان مسؤول عن عمله وسلوكه ومعتقده، يستطيع أن يخلص نفسه بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى وليس للإنسان إلا ما سعى.

٢٠- الدنيا لها مظهر مادي في الظاهر وهو الذي نراه، ولها جوهر طاقي في الباطن لا نراه، كالجسد والروح، والجوهر الطاقي هو في حقيقته (نور) يستمد من الاسم " النور " ولا يعلم حقيقته إلا من يجعل الله سبحانه وتعالى في عقله وقلبه نور يهتدي به إلى الفرقان بين الحقيقة الأسمائية وبين الموجودات في الظاهر والباطن، يمكن أن يتبين معه الحق من خلال رؤية آيات الله سبحانه وتعالى في الآفاق وفي الأنفس**{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}** [النور: ٤٠]. هكذا في واقع كل الظلمات، في الخارج المحيط بالإنسان، وفي داخل الإنسان في عقله ونفسه وقلبه وروحه.

{أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٢].

* * *

الفهرس

* * *

كتب للمؤلف

الكتـاب	يطلب من
١- الإنسان والخلافه في الارض	دار الشروق
٢- حول المرجعيه القرآنيه - تحديد المفاهيم	مكتبه الشروق الدوليه
٣- حول المرجعيه القرآنيه - اخلاقيات المال	مكتبه الشروق الدوليه
٤- حول المرجعيه القرآنيه - في النفس والاخلاق	مكتبه الشروق الدوليه
٥- اصول النهضه الإسلاميه	مكتبه الشروق الدوليه
٦- الدين والدوله الحديثه	مكتبه الشروق الدوليه
٧- الإسراء والمعراج وعلوم العصر	دار الكتاب المصري اللبناني
٨- اضواء على الطريق إلى الله	المؤلف
٩- قراءة معاصرة في كتاب الله	المؤلف
١٠- مورد الحكمه وأوراد الحكيم	المؤلف
١١- رساله في التوحيد	مكتبه جزيرة الورد
١٢- في معيه الرسول في القران الكريم	مكتبه الشروق الدوليه
١٣- الله جل جلاله بين التثليث والتوحيد	المؤلف
١٤- الله جل جلاله	المؤلف
١٥- الفتوحات الربانيه في الصلاة على الذات المحمدية	المؤلف
١٦- مشاهد في جوهر الصلاة	المؤلف
١٧- معارج المؤمنين إلى الإحسان واليقين	دار الكتاب الصوفي
١٨- البعد الحضاري في سياسات الإصلاح والنهضة	لم ينشر
١٩- الإنسان ويوم الحساب	مكتبه الشروق الدوليه
٢٠- المرجعيه الإسلاميه للدوله المدنيه القانونيه الحديثة	مكتبه الشروق الدوليه
٢١- البعد الحضاري الإسلامي للدوله المدنيه الديمقراطية	مكتبه الشروق الدوليه
٢٢- رؤيه في الإسراء والمعراج	مكتبه جزيرة الورد
٢٣- حديث الروح في اسماء الله الحسنى	نفد
٢٤- الاخلاق في الإسلام	مكتبه الشروق الدوليه

* * *